

الرفاعي

العدّ التنازلي

« اليوم الثالث عشر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ الساعة ١٥٣٠ .. »

يمضى الطريق الى مركز السماء ، فى المقعد ذاته يجلس الرفاعى عاقدا يديه أمام صدره ، يتابع فراغ الصحراء وتنوع صفرة الرمال ويروز الصخور ، يصغى الى صوت المحرك الرتيب الذى استقر منذ فترة على ايقاع لا يتغير ، يزداد ابتعادا عن البيوت والزحام والضجيج ، آخر من رآهم قبل التوغل فى الصحراء مجموعة من الفلاحين أمام دكان بقالة صغير يقع عند نهاية آخر قرى مركز الصف المطللة على الصحراء .

قبل اقترابهم من القرية هدأ عبد المؤمن من سرعته . يعرف ما سيقوله الرفاعى لو اخترق الشارع الرئيسى بنفس الاندفاع ، أثناء ركوبهم الجيب التى تحمل أرقاما عسكرية يقف عند كافة نقاط الشرطة العسكرية . فى المرة الأولى أثناء عودتهم الليلية من صحراء دهشور بدا متعبا ، عند آخر نطاق الفرقة لم يهدىء عبد المؤمن من سرعته . ان العربة ذات اربعة أبواب ولا يركبها الا القادة ، اعتدل يومها قال فى صوت فاتر ، هادىء « قف » ، تقدم جندى الشرطة ، قدم اليه بطاقته « تمام يا أفندم » ، أصغى عبد المؤمن الى صوت احتكاك الحذاء بالارض الصلبة المغطاة بذرات الرمال عند أداء الجندى للتحية ، انطلق عبر الطريق الذى يدور حوله هضبة الاهرام ، ود لو ينهى الرفاعى ذلك الصمت ، استعاد بعض أحاديثه مع الجنود أثناء انتظاره فى الخلاء المعبأ بالنجوم وضباب بعيد فى أعماق الكون ، يحذر بدأ القيادة عند ما دخل فى شارع الهرم ، فى تلك الساعات المتأخرة يمتلىء الطريق بالسكرارى والحوادث وأعمدة النور المنهارة والأضواء الملونة والعربات التى تحمل أرقام الجمارك وهياكل المباني الخرسانية ، رائحة المزارع التى تتخلل البيوت . لا يدرى عند أى نقطة من الطريق فاجأه الصوت المفاجىء ذو المستوى الواحد ، « لا بد أن تقف عندما يصبح الوقوف واجبا » بوغت وقال « تمام يا أفندم » ، عاد الصمت ، فى ميدان الدقى جاءه نفس الصوت « لو أنه لم يوقفك لطلبت مجازاته » ، أوما برأسه

والصوت الهادئ يرسل فيه احساسا بالذنب وخشية لم يعهدها من قبل مع جميع من عمل معهم .

إن الرفاعي الآن يتذكر هؤلاء الفلاحين ، عند خروجه من المدينة يستعيد آخر من رآهم يسعون عبر الطرقات أو يخطون فوق الارصفة ، الملامح المرهقة ، الاستسلام الغريب ، الضحكة الضائعة ، والنظرة الوهلى من عيني مجهول ، وشظايا عبارات متطايرة ، بيوت مسكونة بالاسرار والماضى ، دائما يخرج من المدينة عبر ثلاث نقاط ، طريق السويس المزدحم بالكثكنات حتى الكيلو ٥ ، ٤ أوشكت حركة العمران ان تصل الى هناك ، ثم طريق الاسماعيلية المحاذى لمطار القاهرة ، ثم هذا الطريق المؤدى الى بطن الصحراء الشرقية ، ان آخر الأشياء والمرثيات تمر به عند الخروج الى القتال ، آخر من تحدث اليه ، ملامح نادية ، آخر عبارات تبادلها مع الضباط والجنود الذين لم يخرجوا معه ، يذكر الآن آخر اشتباك فى صيف عام ١٩٧٠ ، تمتد الصحراء الآن صامتة ، بحر تجمد منذ عصور سحيقة ، لكن هذه المسافات الشاسعة جبلت بحركة خفية ، اليوم يختلف الأمر عن خروجهم فى المرات السابقة ، انهم الآن جزء من كل ، لا يلتفت الى من معه لكنه يدرك الانطباعات ، حدة العقيد علاء التى توحى بأنه سيشارك فورا ، جلوسه بميل الى الامام ، وضع الملائك قبل تسديد الضربة ، أبو الفضل الصعيدى وملاحه التى تعكس احساسا

بالانتظار ، مصطفى المتأهب دائماً لتلقى الامر ، أبو الحسن وشبح ابتسامة دائمة قد تظهر في أى لحظة ، ان الرفاعى يرى تلك الروابط الخفية ، تشد كلا منهم الى الآخر ، قبل العبور لملاقاة الحرب يصبح كل منهم أكثر احساساً بالآخر . أى كلمة تقال تلقى موضعاً وثيراً فى آذانهم . أى لمحة ساخرة تفجر الضحك من أعماقهم . اثناء الانطلاق تتعانق أذرع غير ممتدة . وتتماس خطوط البصر المستقيمة ، بعد قليل سيواجه كل منهم الموت ، والموت يحوم فوق الجماعة ثم ينقض فوق الانسان الفرد ، الشظية لا يوقفها إلا جسم واحد ، يصبح الإنسان شديد الوحدة فى مواجهة الموت ، ان تجاورهم ، ومد جسور العواطف واستعادة الذكريات ، كل ذلك يحصنهم ضد اللحظة المؤجلة .

يتساءل المساعد حسن . .

— لماذا قال البيان إنهم بدأوا بالعدوان ؟

يجيب العقيد علاء . .

إنها اعتبارات دولية . .

يقول المساعد حسن . .

أتمنى لو قلنا إننا بدأنا الهجوم . .

يضم العقيد علاء أصابع يده ، يهزها من أعلى إلى أسفل ، يضيق الرفاعي عينيه بعد اصغائه الى هذا الحوار القصير ، ينظر الى تل رملي مرتفع عند خط السماء ، يدور ايرياضخملحطة رادار ، يلتوى الطريق بحددة ، يتبع الاسفلت منحنيات الصحراء ، يهدىء عبد المؤمن ، ينظرون الى سيارات النقل الضخمة ، صناديق الذخيرة الرمادية ، فذائف هاون عيار ١٦٠ مللى ، كان الطيران الاسرائيلى يحىء الى مواقع هذه المدافع بمجرد حفر خنادق الجنود حتى قيل ان الطائرات بها جهاز خاص لشم رائحة الهاون ١٦٠ مللى ، وجهاز آخر لشم رائحة العمال الصاعدة بناء مواقع الصواريخ ، لا يذكر من قال « ربما كان ذلك تطبيقا عمليا لما يسمى بالاستشعار عن بعد » كانت الطائرات تحيىء من الاعالى كأنها أقلعت من مطارات خفية فى أعماق الفضاء ، يبرق معدنها المواجه للشمس كنصل موسى ، تنزلق ، يختلط الاسمنت بالدماء وبقايا الطعام والملابس التى تثير الشفقة بعد انتهاء الغارة ، خرج ضابط من موقع مدمر ، ضرب بالألف رطل ، صرخ .. لماذا .. لماذا ..؟؟ عيناه دامتان مشدودتان إلى السماء التى بدت بعيدة ، نائية ، لا تحيب ، نزل الرفاعي من السيارة ، لم يكن يصحبه إلا مصطفى ، خاضا فى الحطام ، وبقايا طعام ، وفردة حذاء قديم ، وعلب طعم محفوظة فارغة ، وأوراق محترقة ، وبقايا تليفون ميدانى ، صاح صوت من بعيد ، احذروا .. قنابل زمنية » ، زعق

الرفاعى ، « تعالوا . . إنها قتابل كاذبة » هزكتفى الضابط ، لم يتوقف عن التساؤل ، « لماذا . . لماذا » جاء جندى قصير القامة حذرا ، اقترب عامل صعيدى ، ظهر ثلاثة جنود خمن أنهم من الصاعقة ، انحنوا حتى تمكنوا من زحزحة كتلة الاسمنت ، حادت عيننا مصطفى عن النصف الأدمى المقطوع الصلة بنصفه الأسفل .

كأن ما جرى يمت الى بشر آخرين ، لكم تبدو تلك الايام نائية ، كانت الجبهة وقتئذ عارية ، يجمى الطيران فى مواعيد لا تتغير امعانا فى التحدى ، يختار الطيارون أهدافهم . يضربون عربة ويتركون الأخرى ، يقتصفون موقعا ويتركون الآخر ، بينما تبدو انفجارات قذائف المدفعية المضادة للطائرات كبقايا قطن رخوة فى الفراغ .

الآن انتهى عرى الجبهة ، نبتت الصواريخ من كل الانواع ، مصوبة الى كل الاتجاهات ، قال ذلك اللواء ضاحكا منذ ثلاث سنوات « فى المساء لم يرصد العدو أى شىء وفى الصباح ركبهم الذعر والغضب ، لقد طرحت الارض كافة أنواع الصواريخ » ، يمضى طابور النقل ، يجاذى الميكروباس منتصف القول ، يزيد عبد المؤمن السرعة حتى يتجاوزه . فوق الصناديق بطاطين ومعاطف ، يجلس عدد من الجنود ، يحملون اسلحة أوتوماتيكية ، احدهم يأكل ، يشيرون الى راكبى الميكروباس الأبيض ذى الأرقام

المدنية ، ينحنى عبد المؤمن قليلا فوق عجلة القيادة ليوسع من دائرة ابصاره ، كلا الجانبين لا يدري الى اين يتجه الآخر ؟ ، لكن التحرك فوق هذا الطريق ، فى مثل هذا التوقيت ، يعنى ان كلا منهم يتجه الى المعركة التى بدأت فى الثانية ، لم تسمع قذائف بعد ، لكن تبدو الحركة كالدماء التى تهرع فى الشرايين لتغذى قلبا ينزف ، فى المقدمة عربة نقل تجر مدفع هاوتزر مكشوف الفوهة ، عربة أخرى تجر مدفعا مضادا للطائرات ، يرتدى طاقمه الخوذات ، يحتل موقعه فوق المقاعد الصغيرة المثبتة الى القاعدة الدائرية ، تنأى صيحات الجنود ، ينحنى الطريق ثم يستقيم ، تبتعد الملامح والخوذات وتحية المتوجهين الى القتال ، يوشك الرفاعى أن يبدى ابتسامه ، منذ فترة بعيدة لم يخرج مع الرجال إلى الضفة الأخرى .

يدرك الآن اثناء الصمت الأدمى الذى يغطى على ازيز المحرك ان الكل يسبح فى شعور الرفقة ، يهدى عبد المؤمن من سرعة السيارة ، يقترب من مدق جانبي ، ترتفع مقدمة الميكروباس ، يتغير ايقاع العجلات ، فى المرأة يلمح أبو الفضل منحنيا ، أبو الفضل لا يستعيد الآن ذكريات لقاء أخير مع أسرة ، لا أصوات اطفال تردد فى ذاكرته ، أو رائحة خبيز بيتى تنتظره فى أجازة قادمة ، انه يصحب الآن كل ماضيه ولا يدع وراءه أى مخلقات للذكريات أو الحنين ، يحمل حياته كلها على كتفيه ويحسب بها ، يلتفت اليه الرفاعى مناوشا ..

« اليوم للصعايدة » ..

تطلعوا إلى ابو الفضل ، وسرى بينهم عير أخوة غامض .. الصعيد
كله يعيش فى انتظار هذا اليوم ، بعد الهزيمة قامت النيران كثر بتروول بلا
قرار

يضحك أبو الحسن

أنه لا يفكر الا فى آبار البترول ..
تغرب التقطية على جين أبو الفضل ، يبدو الآن هادئا كنداء خافت فى
ليل متقدم .. يقول العقيد علاء ..

أبو الفضل لا يرى فى مصر الا صعايدة ، الناس فى رأيه اما صعايدة أو
أجانب ..

يتدخل عبد المؤمن ..
طبعا يا أفندم .. الصعايدة اجدع ناس ..
يتساءل أبو الحسن ..
الا يوجد مكان للاسكندرانية ؟
يقول العقيد علاء ..
سيادة العميد وزع صباه وشبابه على كل البلاد .
يهز الرفاعى رأسه مبتسما ..

كنت أعد نفسي لقيادة المجموعة ..
منذ الآن لن يستقر الصمت ، تسرى حميمية ، صوت مصطفى
هادىء سريع .

لكن سيادة العميد الرفاعى من مواليد بلقاس ..
يقول العقيد علاء ..

هذا صحيح .. ولكن كل بلد أخذ منه مقدارا ..
يقول أبو الفضل ..

مجموع ما قضاه فى الصعيد يفوق ذلك بكثير ..
يضحك أبو الحسن ..

لكن أى المناطق تعتبر صعيدا .. اذا ذهبت الى اسيوط وقلت لهم انا
من بنى سويف .. قالوا لك انت من بحرى .. نفس الامر اذا ذهب
الاسيوطى الى سوهاج والسوهاجى الى قنا ..

يبتسم أبو الفضل ..

الصعيد الحقيقى يبدأ من سوهاج ..

لا يدع أبو الفضل فرصة إلا ويتحدث عن الصعيد الذى عرب عنه
طفلا . من يسمعه يتحدث عن قريته ، يصف طرقاتها ومنحنياتها وقعدة
العصارى فى الرحبة ولون البلح عندما ينضج فوق النخيل ثم تساقط
الثمرات فوق الأرض ورائحة الخبيز فى الظهيرة وسوة الاثنين والمنندرة

ومخزن الغلال وأحاديث الرجال الليلية ، من يسمعه يخيل إليه أنه عاد بالامس من أجازة هنية قضاهها يتمتع بحنان الام ويصغى الى دعوات الاخت ويلتحف بليل اسرى دافىء قبل عودته إلى الوحدة ، لا يؤلم الرفاعى الا رؤية ابو الفضل وحيدا عند نزول زملاءه الى المدن والقرى فى أجازاتهم ، دائما ينحاز اليه فى أى وقت نقاش دائر ، مرات عديدة حذر العقيد علاء من توجيه أى عبارة اليه قد تخذش احساسه « تمضى السيارة مهتزة أو مستقرة » الى الخلف زوية أثارتها العجلات ، تجىء عربة جيب من الاتجاه المقابل « ويضغط عبد المؤمن الكلاكس ثلاث مرات ، يجيبه كلاكس الجيب .

« أهذه شفرة »

يرد أبو الحسن بسرعة . .

« لا يا أفندم . . هذه عزومة مراكيبه »

على الطرقات المتباعدة يحبى السائقون بعضهم ولا يرى الواحد منهم الآخر . تقاليد مجهولة المصدر ، تبدو عربة استطلاع ، يطل من الفتحة الرئيسية ضابط ، لم يستطع التحقق من الرتبة ، يرتدى خوذة ، لا يوجد مقاتل فى المجموعة يرتدى خوذة ، هل نذهب إلى العدو محتملين بالخوذات ؟ الخوذة ثقل اضافى « قال عصام يوما ان فائدتها الوحيدة منع

العقل من التفكير ضحك الرفاعي . تبدو من بعيد الانشاءات السريعة القليلة لهذا المطار الذي أنشئ بسرعة في أواخر الستينيات ، صناديق خشبية ملقاة في العراء ، لفات من الاسلاك الشائكة ، أكياس بلاستيك فارغة . خطأ يجب التنبيه اليه ، لو الصناديق فارغة ستسهم في تأجيج حريق قد ينشب مع أى قصف ، ولو بها معدات فتلك خسارة ما بعدها خسارة ، يقترب مطار الاقلاع . يمكنه تمييز الدشم الخرسانية . لم يعرف بعد . هل سيجد الطيارين الذين اعتاد الخروج معهم . هل سيجد النقيب سيد أو سيد بلاعيم كما يسميه رجال المجموعة لتعدد مرات طيرانه فوق حقول البترول ببلاعيم ، كذلك الرائد نبيل ، هؤلاء الذين اخترقوا به تحصينات الليالى السود ، وثغرات دفاع العدو الجوى ، قبل مغادرتهم حضر المجموعة في الضواحي ، اجتمع بالرجال ، في البداية استعاد ايام ما قبل وقف اطلاق النار ، قال ان اليوم يومهم . والسنوات التى انقضت ما هى الا مقدمة لهذا اليوم ، قال ان الشغل الحقيقى سيبدأ من اليوم ، قال لا بد من الحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو ، سيمضون اليه في المواقع التى يعرفونها جيداً . وتلك التى يجهلونها ، وأن يستعدوا لتلبية أى واجب قتالى يطلب منهم ، قال ان الوضع يختلف اليوم ، انهم لا يعبرون الى الشرق بمفردهم انما هم الآن جزء من كل ، قال ان خطة الهجوم على بلاعيم مصدق عليها من القيادة ، يجب تحويل كل شبر الى جهنم . أشار

الى نموذج مجسم من الجبس « تطلع الرجال وكأنهم ينظرون من خلال
منظار يصغر الاشياء مياه الخليج « الصهاريج الضخمة المحاطة بسواتر
دائرية من الطوب الأحمر « مواقع المدفعية المضادة « محاور الطرقات
الرئيسية « مباني الادارة ، ميس الطعام « مواقع الحراسة القريبة من
الخليج ، أشار الى النقاط المحتمل أن يدفع العدو اليها بكمان ليلية . قال
ان الهدف هو الصواريخ وكل عدو يتحرك هنا أو هناك ، كل عدو حى ،
سيتم الهجوم بطريقة من طريقتين ، قال انه يود لو سمع أى ملاحظات
طافت نظراته تستحث ، تشجع ، أمامهم سبع عشرة دقيقة للتحرك « من
غير المسموح به اطلاقا مناقشة أى تفاصيل بعد مغادرة هذه القاعدة « ممنوع
بشكل مطلق أى استفسار هامس أو جانبى ، كل التعليقات حتى المرححة
يجب أن تقال هنا « تساءل أبو الفضل عن المدى الذى يمكن أن تهبط اليه
الطائرات فى حالة تنفيذ الخطوة الاولى ؟ قال الرفاعى انه اقل ارتفاع ممكن «
جالت عيناه مرة اخرى فى الملامح ، بعد لحظات من الصمت تناول لفافة
صور ، فردها على امتداد جسده ، بدأ أصبعه يقوم بالإشارة ، هذه الصور
التقطت بواسطة الاستطلاع الجوى منذ اثنين وسبعين ساعة ، قال ان كل
ما استجد منذ اعداد الماكيت نقطة استطلاع جوى وموقعها هنا ، تقدم كل
منهم الى الصور « تفحصوا الخطوط والظلال ، فى الدقائق القليلة المتبقية
اتم جولته السريعة المعتادة والتي يسمونها « اللمسات النهائية » .

يتوقف الميكروباس بالقرب من مبنى منخفض ، للحرب هنا ملامح
وتجاعيد ، يقفز الرفاعي « رصد نظرة حادة في عيني العقيد علاء » القتال
عند علاء يعنى الالتحام ، والمباغثة ثم أطفاء البريق في العيون . كل منهم
ادخر كثيرا من الصرخات داخله طوال الاعوام الثلاثة الماضية ، قال
الرفاعي لعلاء بعد العودة من لسان التمساح أود ان تصغى إلى نفسك
يوما ، من يرك أثناء الاشتباك لا يتخيل انك طبيب وطبيب اعصاب
بالذات ، قال علاء ان الطبيب يداوى الجراح المحدودة اما نحن فنعالج
جراح التاريخ ، اثناء القتال يشتبك بالواقع والمصير واللحظة ويسدد
الطعنة قبل ان تناله الطعنة المقابلة « يتلاشى تماما ، يتعايش فيه الوعي
واللاوعي ، الرفاعي يرصد كل التفاصيل ، لا يفلت منه أى جزء من
الموقف ، لا الملامح ولا نهاية مسارات الشظايا ، لا يفقد الرؤية في
سحابات الدخان غليظة القوام » في اللحظة يتنبه للخطر المباغت الذى
يطل فجأة من قلب الدوامات واختلاط الرواح بالمجىء ، عندما يتبادل
الجنوب والشمال مواضعها وتصبح الدائرة خطا مستقيما والواحد يغدو
اثنين ، قال علاء ان القتال الحقيقى هو : الالتحام بالسلاح الأبيض ،
ليس القصف بالطيران أو المعارك التصادية بالدبابات .

هيا يا وحوش . .

يتتنحى بالعقيد علاء جانبا ، يتساءل علاء . .

— يعنى هل تعذر توفير الجهد المطلوب ؟

ينظر اليه الرفاعى معاتباً ..

— لا داعى للحدة .. هذه الحدة ستحتاج اليها بعد قليل ..
صمت لحظة ..

لا تنس أن الحرب مشتعلة على طول الجبهة .. نحن لا نعمل
بمفردنا ..

يبدو أن العقيد علاء لم يقتنع ، لا يريد ان يسب ويلعن فى هذا اليوم
كعادته عندما يواجه أمراً لا يعجبه ، يتقدم الرفاعى باتجاه ثلاث طائرات
هيلوكبتر ، أزيح عن كل منها غطاء التمويه « يصافح الطيارين » يتحدث
اليهم ، يرتدى قفازه الجلدى الخفيف .

ليتأكد كل منكم من ضبط زوايا المدافع ..

تحين اللحظة التى سيفترقون فيها « يشب العقيد علاء إلى الطائرة رقم
٢ ، فى أثره المساعد أبو الحسن .. قبل ان يختفى أبو الفضل فى جوف
الطائرة ينظر الى الرفاعى ، ما يمكن قوله كثير لكن الالفاظ شحيحه ،
الرفاعى مطمئن الآن كأنهم لم ينقطعوا عن الخروج معا طوال الاعوام
الثلاثة الماضية » يشير الى الجاويش مصطفى ..

— هيا يا وحش ..

يحتوى بعينه المطار والمنشآت والرجال ، ونور أحمر يلمع فى مؤخرة طائرة تقف بعيدا عن دشماتها الخرسانية ، وهيكل خشبى لطائرة قتال « وإيريال رادار يدور فوق مرتفع « وثلاثة رجال يحملون صندوقا يحوى شيئا ما ، وجندى يقف وحيدا ، تذكر طفلا يطل من شرفة بيت من طابقين « ورجلا يجتفى عند منحنى طريق ضيق مفروش بالظلال ، بالقرب من مبنى ادارة المطار يقف عبد المؤمن « يعرف انه لن يظل وحيدا ، سيتعرف الى الآخرين بسرعة ، سيبادلهم الحديث ثم يحكى له ما جرى ، يغلق الباب الخلفى للطائرة ، يسرى تيار نحيل من الحركة ، كم مرة طارت ؟ كم مرة ستطير ؟ الى أى الجهات وصلت ؟ يشد على كتف مصطفى ، يتجه الى كابينة الطيار ، يجلس فى مقعد المساعد ، يضع السماعتين فوق اذنيه ، سيقوم بمهمة الملاح ، انه يحفظ ملامح الطريق والمعالم الارضية ، خاصة بعد عبور الخليج والطيوان فوق سيناء ، ليست المرة الاولى التى يتجه فيها الى بلاعيم .

يهتز الجسم المعدنى فى ثباته ، فوق الارض يبدأ ظل المروحة الرئيسية فى الدوران ، يضغط الطيار ازراعا عديدة فى اللوحة المزدهمة بالمؤشرات والعدادات بنظرة جانبية يرمق وجه الطيار الذى يخرج معه لأول مرة ، ملاحه ثابتة كأنه على وشك الشروع فى ابتسامة « يذكر الجرجاوى ، الجندى الذى لا يعبس أبدا « كلما نظر اليه يراه مبتسما « يبدو راضيا عن

الدنيا ، يشعر بابتسامة اثناء الخطو الحذر فوق الارض هناك ، يجذب الطيار العصا القصيرة ، تميل مقدمة الطائرة ، انها معلقة الآن ، تنظم الحركة ، تتسع المسافة بين الارض والطائرة ، يتضاءل حجم المنشآت ، يلمح رجلا يلوح بيده ، يرفع يده بتلقائية على الرغم من ان الآخر لن يلمح ردة . تدور الطائرة ثم تستقر باتجاه الشرق . الشمس خلفهم الآن . ما تزال النجوم بعيدة عن السماء ، بعد ربع ساعة سيجتمع الناس حول موائد الافطار ، كل ما يقومون به الآن وما سيمرون به سيصبح بياناً عسكرياً ، اذ يقرأ عن المعارك التي خاضها الآخرون لا يخدعه اختزال السطور لما جرى . يجسد ألم الجراح لحظة الاشتباك والصيحات الليلية والرعب الانساني ، مروق الطلقة بين الجندي والجندي والألم الخاطف المركز السريع الذي ينتهي فجأة ثم تنقذ الشظية إلى ما وراء الاذن ، الحرب هي ان تنجح في ادخال هذه الشظية الى جسم العدو ، سواء صدرت الشظية عن طلقة مسدس أو قنبلة مدفع أو دابة دبابة أو صاروخ معقد ، الطرق تتعدد ولا تحصى لكن الموت في النهاية واحد ، لا يوجد من يصحب معه قدراً من الدنيا اكثر من الآخر ، في لحظة معينة من هذا الليل سيرسل عشرات الشظايا . لابد ان يوجعهم ، ان يسدد الضربات الصحيحة . ان يحدث آثاراً لا يحوها الزمن بسهولة . لو رحل الى الأبد سيقى بين الاحياء بقدر ما يحدثه من أثر في العدو ، كل شيء مدرك بالزمن ،

والملموس يخسر السباق معه دائما « تلك اللحظة الآن أصبحت الآن
ماضيا ، المكان الذى تشغله الطائرة يتغير ، والفراغ ليس بواحد ، المهم
تسديد الضربة « كل شىء يفلت ويمرق ، لكن يجب الا يمر بالعالم صامتا «
كثيرا ما قال للعقيد علاء وللشهيد عصام أن القتال كأى شىء تتعده
وترعاه « كلما بذلت معه جهدا جنيت منه أكثر ، لم يتجه الى العدو يوما
ليسدد ضربة خفيفة « محدودة الأثر ، انما يوحد كل ما للرجال من
قدرات « ليفجر كل ما يستحوذون عليه من طاقات ، يود لو يشمل
الانفجار عناصر الطبيعة نفسها ، يفجر القوانين التى تحفظ ثبات الارض
تحت العدو ، وسيولة البحر « والهواء الصالح للتنفس ، يود لو خرج من
اسر جلده وجاء بالنيازك الضالة فى الفضاء وخلق الوسيلة لتوجيه الشهب
الحارقة وسددها الى قلب العدو ، يفضيه التفكير فى اختيار الهدف ، ثم
تفضيه الرغبة فى تفجير كل ما يتعلق به من موجودات « يتجه الآن الى
العدو بعد توقف قسرى دام ثلاث سنوات ، ضاق بالحركة اليومية الرتيبة «
اضنته آلام القرحة ، الليلة سيزرع لسانا من اللهب يصهر سواد السماء
والنجوم ويحجب الكواكب البعيدة ، نيران تفح حرارتها فتعم وتشمل
وتقول بالحرق واللسع ان فى هذه البلدة رجالا « كل ما مضى من سنين
وشهور ولحظات معاناة مقدمات لما هم مقبلون عليه .

تعتبر الطائرة سلسلة جبال الجلالة ، سيمكن رؤية مياه الخليج بالنظر
بعد ثوان . .

لنهبط الى ارتفاع عشرة أمتار . .

إن اصواتا عديدة تتداخل في السماعات ، المطار ، الطائرات في
السماء ، القواعد ، الصواريخ ، أصوات مجهولة واشارات غامضة « طنين
كوني » ستطير الهليكوبتر بمحاذاة الخليج حتى رؤية الاشارة الضوئية «
يتابع الطيار عداد الارتفاع . .

إن الطيار يرمق الرفاعي بسرعة ، في اللحظات الأولى رأى ضابطا
هاديء الملامح يقف ملامسا خصرة براحتي يديه ، هل هذا هو الرفاعي «
كثيرون من طياري الهليكوبتر اعتبروا الطيران معه عملا يميزهم عن
الآخرين « عندما ابلغوه قالوا له ان الطلعة اليوم رفاعية ، ضحك « قال
هذه بداية جيدة للحرب ، يسأل نفسه متى الم الرجل بهذه التضاريس ؟
كثير منها سكان الصحراء انفسهم الذين يعرفون طوال حياتهم دربا أو
دريين « أنه يعرف اتجاهه « لا يدري متى تسرب اليه هذا الاحساس
بالثقة ؟ هل بدأ لحظة دخول الكابينة ؟ لحظة تأمله للملاحة الهادئة ؟ أصابعه
الطويلة النحيلة المغطاة بالقفار والحذاء الأسود ذي الرقبة الذي يغطي ساقيه
ويلملم بنظلولونه ، حوله تلتف خيوط النايلون التي يستخدمها رجال

المظلات ، في صوته ثقة وفي ملامحه ود ، وعندما يجلس يسرى هذا الشعور الرجولى الذى يعم المقاتلين وهم على وشك القيام بعمل قتالى . هذا التضامن ، والمرح المستور الذى يخفف وطأة ما هو منتظر . هل شعر بالثقة بعد تلقيه أوامر الرفاعى الواثقة التى تعكس معرفة صاحبها بالطريق . . انه يتابع الأرض ، الصمت اللاسلكى تام الآن بين الطائرات الثلاث .

نقطة ضوء في بحر العتمة . .

يلتفت الى الطيار ، الملامح تبدو على ضوء العدادات الصغيرة في لوحة القيادة ، يشير بيده الى الأمام ، آخر نقطة أرضية ترمقهم منها عيون الأصحاب والأقارب . انه يرى الطائرة بعيون الواقفين هناك . يضيئون لارشادها الى الطريق الصحيح . من المؤكد أنهم قفزوا وصاحوا للرجال الماضين الى قتال العدو على الرغم من ثقتهم بأن من في الطائرة لن يسمعهم ، في صيف عام ١٩٦٩ مرقت ثلاث طائرات ميج ١٧ فوق مواقع مدفعية الهاون القريبة من مياه القناة ، رؤية طيراننا في حد ذاتها وقتئذ تثير الحماس والأمل ، صفق الجنود وصاحوا مهللين ، ورمق ضابط الموقع الشاب الذى مد ذراعه محبياً . بعد ثوان جاء صوت القصف المكثوم البعيد . لحظات ثم تتابعت الأصدااء المعدنية لانفجارات المدفعية المضادة للعدو ، أظلم وجه الجنود . بدا الضابط الشاب مكتئباً ، فجأة مرقت طائرتان على ارتفاع

منخفض جدا ، اتسعت العيون ، سادت خنادق المواصلات وحشة ، أين الثالثة ؟ سؤال رده الصمت ولم يجزؤ أحد على نطقه ، أدار الضابط التليفون الميداني ، سأل المواقع القريبة ، غير أن أحدا لم يرصد الميج ١٧ أثناء عودتها ، بعد أربع دقائق صرخ أحد الجنود أطلت الرؤوس تتابع الطائرة الجريجة التي راحت تتقدم باتجاه الغرب تجر وراءها ذيلا من الدخان ، ارتفعت الصيحات ، وكان الطيار أحس بما يجري فهز جناحي الطائرة محيا .

إنه يشعر الآن بابتعاده عن الأرض الصلبة . اللون الآن أكثر قتامة . سيخف تدريجيا كلما اقتربوا من البحر . يستعيد أدق التفاصيل ، لم ينس شيئا . يلمس ذراع الطيار الأيمن المواجه له ، يشير الى اليسار . هل يختلف احساس الانسان عندما يطير فوق الماء ؟ الآن ايقاع الزمن أدق ، يشير إلى اسفل ، تهبط الطائرة مترين ، سيلتقون بسيناء وهم على ارتفاع ثمانية أمتار . يصغى الى صوت الطائرة . الى الليل ، ينظر الى عقارب الساعة الفوسفورية . يتوغلون داخل سيناء ، خمس دقائق ، يشير الى الطيار ، تعود أضواء الطائرات الخارجية ، تستدير المقدمات . بهم بالقيام ، يشير بيده . يضيء الطيار الكشاف الرئيسي . يغادر الكابينة . مصطفى يفتح الباب ، يتمنطق بحزام القنابل ، يتناول المدفع الذي تسميه المجموعة بالرفاعي ، أمريكي الصنع عيار ٥٧ مللى ، حصل عليه من داخل إحدى

الدشم بلسان التمساح ، الباب الجانبي مفتوح « تبدو الطائرات الآن وكأنها قادمة من داخل الأراضي المحتلة « اذا لم يكتشفهم العدو فسيزلون في المطار الصغير المهد لاستقبال الهليكوبتر « عندئذ يبدأ الفتك بمن يواجهونه منذ لحظة خروجهم ثم يشقون طريقهم الى أقرب المستودعات وتفجير الصهاريج « حتى الآن لا تلتقط أذناه أى أصوات غير عادية « النجوم تتمايل في السماء « تتجه الطائرة الى اليمين « يمرق شريط أبيض نحيل الى أعلى « حرارة تلفح وجهه اذن لن تلامس أقدامهم الأرض « تنحنى الطائرة ، تستدير حول الموقع ، الصهاريج تبدو دوائر ضخمة في السواد « يحرك مصطفى فوهة مدفعه في أكثر من اتجاه ، تمتد ذراع الرفاعى ممسكة بقبلة يدوية ، يحومون حول فوهة فرن ضخمة ، تتفجر الصواريخ بغزارة ، كأن الدنيا تمطر شظايا ولهب بالقلوب ، من الأرض الى السماء « مدفع الرفاعى يرتد كلما شيع قذيفة « تختلط الأصوات والانفجارات وتهب الى أعلى كرة من النيران كبالون ضخمة من اللهب انتفخ فجأة .

اليوم الثانى عشر
٧ أكتوبر ١٩٧٣ . .
اليوم الحادى عشر
٨ أكتوبر ١٩٧٣ . .

.. يواجه البحر ضاماً شفتيه ، تتقدم الأمواج وتراجع كتنفس بطيء
غامض للكون ، فوق الصخور الوعرة حمراء اللون يتمدد الرجال « طلب
منهم أن يستريحوا ثم ارتقى الصخور التى تشبه القباب الناقصة المتصلة ،
امتداد البحر حتى خط السماء يحوى تحدياً خفياً ، هل يصبح المبصر
كالأعمى فى مواجهة هذا اللانهائى ؟ ما حان دون الوصول الى الهدف
قوانين خفية « تعلو بالموج « وتزيد سرعة الرياح « وتجعل من أثقل
القوارب أجساماً خفيفة « عندما قال له وسام ان البحر عال فى هذه الليلة لم

يشته ذلك عن قراره ، ألم تعلمه التجربة انها أفضل الظروف لمفاجأة العدو ، في مثل هذه الليلة لا يتوقع انسان مجيء انسان « سبق لهم أن تعاملوا مع بحر مماثل وأمواج أشد عنفا » إنه ينظر إلى البحر الآن « يوشك ان يتحدث بصوت عال » يضيق بضيق يوم آخر ، يصغى الى صوت البحر القادم من كل اتجاه ، يتأمله بينما يمضى البحر الى كل الزوايا والأركان ، خصمان تنازلا طويلا ثم وقف كل منهما يرقب الآخر قبل استئناف القتال ، عندما انقلب القارب الرابع أمر بالوقوف « طافت العيون بالعتمة » تشابكت الصيحات ، ارتفعت أيد ممسكة بأيد وصواريخ وصناديق ابتلت « رأى الرفاعي قسوة الليل ، حمولة أربعة قوارب في ثلاثة فقط ، لن يواصلوا الطريق الا إذا جاء التمام من كافة القوارب ، الجندي فرغلى مفقود « راح يوغل بنظرة في البحر الوعر ، يعرف ما جال بخاطر الكثيرين ، لكن هل يدع أحد رجاله في هذه المتاهة من الموج والقرش وأنواع أخرى من الهلاك لم يعرفها الانسان ، لتتخذ القوارب تشكيلا دائريا ولتبحث في الدائرة المحصورة ، الجهد المبذول مروع « كأنهم يبحثون في أعماق النجوم السحيقة عن فرغلى « لكن كيف يستمر وأحد الرجال تعتصره هذه المتاهة الجبارة ؟ اذا كان من المحتم ان يرحل الى الأبد ، فليمض هناك في شرم الشيخ « في مواجهة العدو ، لكن ماذا فعل الآن حتى يغوص الى لب الأعماق ، لتبذل كل جهود المجموعة للعثور عليه انه لم يقم بعمل بعد ، لم

يحمل صاروخا ولم يطلق مدفعا . في لحظة خيل اليه ان الكرة الأرضية مالت عن وضعها الطبيعي ، أدركه دوار والبحر يأبي البوح بمكان فرغلي . حوالى الساعة الثانية وعشر دقائق جاء بلاغ من القارب رقم (٢) . . تم الانقاذ . استقام الاتجاه . بدا له انه من الممكن الوصول الى الهدف قبل الفجر . يتم نصب الصواريخ ثم يرى انطلاقها من عرض البحر ، لا يمه طلوع النهار عليهم في البحر ، المهم انطلاق الصواريخ ، وقبل ذلك كله قهر العتمة ، وشراسة البحر ، لم يره في مرات خروجه العديدة بمثل هذه الغلظة . أقام الليل أمامهم حواجز من العتمة والضباب الأسود الكثيف . علا الموج حتى بدت القوارب وكأنها تسير فوق بعضها في بحر من ثلاث طبقات ، ثم تتبادل الأوضاع أعلى . أسفل ، جز على أسنانه ، حوله جدران شاهقة من الماء ، في لحظة تبدو السماء عالية . نائية جدا ، لا يدركها بصر ، ولا تلوح فيها نجوم ، في لحظة تالية يعلو القارب ، يشعر كل من فيه انه معلق ، لا جاذبية تشده ، ولا ثقل يحفظ اتزانه في لحظة أخرى تبدو القوارب وكأنها تدور حول نفسها ، قبض بشدة على عجلة القيادة ، وأصغى الى كل ما يبيئه من أصوات عبر السماعات ، لمح ضوءا خافتا في جوف العتمة الكونية ، بدا قريبا ، ثم بعيدا ، اختفى ثوان ، ثم عاد الى الظهور . علمه اقتحام الليل ، والعبور الى الارض كل ما فوقها معادلة ألا تهتز أعصابه من المفاجأة ، لكن كثيرا ما تلفت نظرة الظواهر

العارضة ، تستوقفه طويلا عند استعادتها بعد انقضاء زمن حدوثها ، يفكر في صوت عابر غامض سمعه ليلا ، ربما انسان يتألم ، أو صراخ حيوان ضال . أو مرور تيار الهواء بين شقى جبل أو ترزح صخرة عن موقعها ،

أو حدوث صدى لشيء غامض يسبح أو يتحرك ، ليلة أمس حار في تفسير هذا الضوء لم ترصد أجهزة الرادار في القوارب أى سفن قريبة ، لم تدرك الأبصار مقدار المسافة التى تفصلهم عن الضوء ، قال أحد الجنود ، ربما أرسل العدو قاربا للتفتيش ، وقال آخر ان البحر يضيء في مواضع معينة لأن الشعاب المرجانية تنوهج في القاع . قال آخرون ان هذا الضوء متحرك . لم يستمر الضوء الغريب انما اختفى فجأة كظهوره الغامض ، لم يستطع الرفاعى ان يمنع نفسه من التساؤل ، ما مصدر الضوء ؟ المفاجأة لا ترهبه والمجهول لا يخفيه ، ولكنه يود دائما ان يعرف ، لكى يحدد موقع الخطوة التالية ، ضاع الضوء ولم يهدأ البحر ، في الثانية والنصف جاء بلاغ عن تسرب الماء الى القارب رقم (٣) ، جز على اسنانه ، هذه العتمة وهذا الهياج . والبحر والرجال المسئولون عن صيانة القوارب واصلاحها ، والقوانين التى تحول بين الانسان والمشى فوق الماء أو التنفس قرب الأعماق كل هذه العناصر تعاندة ، ملامح الرجال مرهقة . المياة تغمر جاككتات الانقاذ ، وعندما أصدر الأمر . وأدار ظهره للبحر والرياح ونأى عن الهدف

المرجوبدا وكأنه يقطع من عمره عشر سنوات كاملة ويرميها الى أعماق هذا
السديم المائي الجبار .

انه الآن البحر وحيدا . لا يقربه أحد ، أمرهم بالراحة يكره رؤية
رجاله متعبين ، لم يقبل أن يصحبه أحد عند ذهابه الى الغردقة فيا عدا
مصطفى ، وعندما عادا الى شدون أمر مصطفى بالتوجه للراحة ، أما
هو ، « فارتقى هذه الصخرة التي تبدو كشرفة عالية مطلة على البحر الذي
يبدو هادئا الآن ، مخادع إلى آخر مدى » في أكثر من مرة هاجم تحصينات
العدو بالمواجهة ، لم يلف ، لم يناور ، مالا يتوقعه العدو اما المستحيل أو
غير المعقول ، اخترق كلا الحاجزين « لكن هذا الحصن الكوني الأزرق ،
من أين ينفذ اليه ؟

اليوم العاشر

٩ أكتوبر ١٩٧٣

استعد للاشتباك . . .

لم يعد البحر محور التركيز الوحيد ، ظهرت لنشات العدو ، يمكن تقدير حجم اللنش ونوعه وحمولته من زبد الماء الأبيض الناتج عن شق المقدمة النحيلة الحادة ، وبالتالي تحديد سرعته وتسليحه وعدد طاقمه ، ان عقلة الآن يعمل بسرعة « ماذا يريد العدو ان يفعل ؟ ان المسافة التي تفصلهم عن الشاطئ لم تعد بعيدة ، يتنبه الى استدارتهم » عدد اللنشات اما ثمانية أو سبعة ، انهم يحاولون دفع الزوارق الى الساحل « ربما لحصرهم بين نيران المدفعية الأرضية ونيران اللنشات ..

الرفاعى ينادى .. الرفاعى ينادى ..

اللش الذى يقوده وسام لا يجيب ، يكره الغموض ، يمقت ابتعاده عن الرجال حتى ولو فى عرض البحر حيث المسافات غير متصلة ، وكل زورق يمثل وحدة قائمة بذاتها عند التوقيت المناسب ، يتأكد من محاولة العدو حصرهم ، إذن ليقيم بمناورة « إنه يستدير ، يطلق نيران مدافعه الرشاشة ، يلفت إليه الانتباه » ثم يتخذ أقصى سرعة مع استمرار الاشتباك ، ربما أتاح الفرصة لبعض الزوارق كي تصل الشاطئ « تنصب الصواريخ ، لكن لاشك أن أنظار العدو كلها مركزة الآن فوق هذه المنطقة » المهم الآن ان يجر وراءه هذه اللنشات ، يتجه الى جنوب شرق حيث الساحل السعودى « كمية البنزين تكفى ونوعية الزورق أسرع من لنشات العدو بسرعة ينتقل مصطفى من مقدمة الزورق إلى مؤخرته « ترى ماذا يفعل الرجال الآن ، كيف يتصرفون ؟ أيقف البحر فى مواجهته هذه الليلة أيضا ؟ بالأمس علت الأمواج ، والبرودة واليوم يحىء العدو « لن تستدير مقدمة القارب إلا عند السطر الأخير « فى اللحظة التى لن تليها لحظة أخرى ، ليته يمتلك القدرة التى تجعله قادرا على إطالة مدى الموجة اللاسلكية لتصل الى رجاله فى بقية اللنشات ، لا يمكنه مد البصر والحواس ليدرك ماذا يفعلون الآن لا يمكنه مد عتمة الليل حتى يتم مناوراته ثم يعود ليلتحم بهم ، لا يمكنه تهدئة الموج ، المدى محدود بما يضمه هذا الخزان من وقود « ما تشير اليه الابرة المعدنية .

ينطلق مدفع مصطفى الأربى جى . .

سيف من اللهب يخترق الظلمة ، يبعث نافورة من نار في قلب .
البحر . .

أصيب قارب معاد « القارب يفرق » لتستمر المطاردة « لا تسمح الظروف بالعودة ، وأسر الغرقى ، في السماء تتحول النجوم عن مواضعها « وصوت يشبه أزيز طائرة « لم يتأكد بعد « لا يكف عن المناورة « ان لم ينفذ من هذا الجانب فليأت من جانب آخر للدنيا أربع جهات أصلية وأخرى فرعية ، لو أمكن اغراق زورق آخر منذ سنة يعد لهذه المهمة « استطلع البحر مرات ، وعرفه بالنظر ، وبالإبحار ، وعيون الأدلة ، يأبى التفكير في أن البحر أجبره على العودة ليلة أمس ، إنما يتعلق الأمر بتقصير ما في خطوات التجهيز لم يهدأ بعد العودة إلى شدوان ، لم ينم حتى الآن ، ذهب الى الغردقة ليعود بزورقين آخرين ، واعاد توزيع الحمولات « تفحص أدق الأشياء ، الليلة يظهر العدو ، الزورق لم يتوقف عن الإندفاع ، لا يعنيه ما يجري له لأن ، ما يقلقه موقف وسام ورجاله وأبو الحسن ومن معه والملازم أول صابر فجأة يشعر وكأنه ، سائق قاطرة انفصلت عن مركبات القطار « انه يحدق الى شاشة الرادار المستديرة « لا أهداف « يللملم أطراف الزورق بعينه ، مصطفى يحدق في العتمة ،

عند الأفق الذى بدا قريباً تتدلى النجوم منغمسة فى البحر ، ضجيج المحرك ، صياح الرجال الذى اتخذ إيقاعاً منتظماً منذ بدء المطاردة . تكبيرات العيد ، الله أكبر كبيراً . . والحمد لله كثيراً . . الصوت الجماعى المهيب ، كل هذا لم يحجب عنه الهدوء الذى خيم خارج هذا النطاق . محرك الزورق لم يطرأ على صوته خلل ينبىء بخطأ ما ، لم تشحط الآلات لم تتوقف ، لكن ثمة شىء تغير فى الواقع الخارجى . انسحب العدو ، عادت الزوارق ، أما عجزاً أو يأساً ، لكنه يضع نفسه مكان قائد اللنشات المعادى ، لماذا التوقف ؟ ربما لقرب نفاذ الوقود ، ربما لاستدعاء طائرات الهليكوبتر ، فى حالة استئفاف المطاردة لأبد من البحث فى نفس الاتجاه . . يستدير فى الليل الذأخر بالأمواج والنجوم ، يود لم ان هذه اللحظة شهدت تصرفاً مختلفاً ، ان وجهه يتقلص فجأة ، هذه أول مرة لا يصل فيها الى الهدف ، كيف ؟ كيف سيفكر فى هذه العملية عندما يصبح وحيداً ، أى المبررات قد يرددها بينه وبين نفسه هو الذى لم يلجأ الى المبررات قط . تم اغراق زورقين رآهما بعينه وربما أغرق الرجال زوارق أخرى ، تلك خسارة فادحة ، ان عينيه تضيقان ، هل تحين لحظة من عمره ليجد العزاء فى إستبداله هدفاً بآخر لتغرق عشرات اللنشات ، ولكن محطة الرادار البحرية لاتزال تدور عند المرتفع الصخري القريب من شرم الشيخ ، وصواريخ الكاتيوشا التى لاتزال ممتدة فى الزورق لم تلتحم بها . ثم ما هذا ؟ ربما

أغرق الرجال » ربما أصاب الرجال ، كلهم فى مهمة واحدة ويضطر إلى التخمين .. ربما .. ربما .. ، لكنه أبعد العدو عن زوارقهم ، سبب ارباكا له أليس مجرد ظهوره فى هذه المنطقة فيه ارباك للعدو ، انه يعرفهم جيدا ، سنبذل عشرات التحليلات ، لماذا ظهرت القوات المصرية فى هذه المنطقة ؟ لماذا جاءت ؟ أى أهداف تقصد ؟ ثم يلى ذلك اجراءات وزواق تتحرك .. أليس فى هذا تعطى لجزء من قوات العدو ؟ .. إنه يأبى الأفكار التى تحوى شبهة العزاء مهما قيل « فهو لم يضع قدمه على صخور شرم الشيخ ولم يسكت محطة الرادار ، لم يلتحم » فى ساحة الكلية الحربية « قبل مباراة الكرة » فى نادى الجيش الرياضى ، يجرى ، يجرى « يتبادل الكرة مع أعضاء فريقه ، قبل النزول إلى الملعب يقول »

لن نعرف الهزيمة ، ضحك .. قال ، لو شعرنا ان الهزيمة قادمة فليتنه اللعب بأى صورة .. لكن لن ينتهى بهزيمة .. هل يتجه الى شرم الشيخ الآن ؟ هل يوجه المقدمة إلى الأهداف الأصلية ؟ والعودة ؟ ليس مهما التفكير فى العودة ، ما يؤلمه أن يظل بعيدا عن الهدف ، الهدف الذى اختاره بنفسه ؟ درسه بعناية « قضى الساعات الطوال يتفحص صور الاستطلاع » يدرس التيارات وتقارير الضفادع البشرية عن مناطق الرسو « العمق والضخالة أى كدر ليل ثقيل ينزل فوقه ؟ ، حتى الموج هدا

والريح استقرت على صوت واحد كالعويل البطيء المملوع ، يخلو البحر
تماما يبدو امتداده بليدا ، باردا . . وكان شيئا لم يحدث . .

اليوم الخامس
١٤ أكتوبر ١٩٧٣

أبدى الرائد وسام ملاحظة ..
لكن هذه المنطقة مليئة بالشعاب المرجانية ..
قال الرفاعى ..
لهذا سنجىء إليهم من هنا ..

الآن تطير قوارب الزودياك فوق رذاذ الماء المتناثر ، يستند الرفاعى إلى حافة الزورق بيده « يمسك بيده اليسرى مدفعه » يتطاير رذاذ ويصخب الموج « وتشهق سماء زرقاء زجاجية ، يبدو شاطئ شلاطيم صخوريا وعرا « يهدى الرفاعى من سرعة قاربه ، يبدو أن العدو لم يتوقع قدوم أحد من هذه المنطقة ، لم تظهر دوريات ساحلية ، لم تحوم أى هليكبترات فى السماء ، ترتفع بيده « تتوقف المحركات المركبة فى مؤخرات الزوارق ،

يقف الرفاعى غير منحرف فى القارب « يمك أبو الفضل بمجداف قصير ، يضرب الماء بسرعة ، يتراجع القارب قليلا ، لكل خطوة حسابها ، كل ما يقومون به معروف من قبل ، يتراجع البحر « فجأة تبدو خطوط بيضاء غليظة قادمة من الخلف ، يتسابق الموج ، يتحفز الرفاعى كأنه يوجد تنسيقا خفيا بين حركة الزورق ، وحركة الأمواج ، تدرك الخطوط البيضاء القارب « تعلوبه « يخف الوزن ، لو اختل التقدير سيهوى القارب فوق الشعاب المرجانية ، ستارة الخوازيق المثبتة فى القاع ، حراب ملونة « خادعة ، تحمل الأمواج القوارب إلى الماء الضحل ، يقفز الرفاعى « يمك مقدمة الزودياك ، يثبت أبو الفضل المخطاف بين الصخور ، يشير بيده الى الزورقين الآخرين « فى أولهما العقيد علاء « يقف عند مقدمة الثانى وسام ، انه لا يرى ملامح وسام لكنه يشعر براحته لأنه صاحب الاقتراح بتخطى الحواجز المرجانية هكذا ، يخطو الرفاعى ، لا يتقدمه أبو الفضل ولا يتجاوزه علاء ، فى الهجوم هو الحرف الأول ، وفى العودة هو اللفظ الأخير « لحظة الاشتباك طلقته تسبق كل الطلقات ، عندما يخرج فى النهار فكأنه يرتدى ثيابا خفيفة والبرد شتوى قارس « لكن حركة المد والجزر الآن تناسب حركة القوارب ، فى الليل ينحاز الى جانبه عنصر المفاجأة ، ويمك بزمام المبادرة ، من حنايا السواد يرصد الخطر ، حتى الآن لم ينبه ذلك الهاجس الخفى الى انهم اكتشفوا أو رصدوا ، وأجاد العدو استغلال الليل

فى شرم الشيخ ، لكنه يحىء إلهم هنا فى وضف النهار ، وفى ظروف لا يتوقعونها أبدا . وفى قوارب لم يحدث أن جرؤ انسان على عبور الخليج بها . اذا كانت زوارقهم أجبرته على اصدار أوامره الى رجاله بالفرق وان يتصرف كل منهم كوحدة مستقلة ، اذا كانوا قد حالوا بينه وبين النزول على صخور شرم الشيخ ، اذا كانت مناوراتهم استهدفت حصره بين الهلاك العائم فى البحر والهلاك المئبث الى اليابسة . اذا كانت طائراتهم اكتشفته وأبلغت فكمنوا له وترصدوه فانه يحىء الآن وعيون الدنيا مفتوحة . ويعبر الخليج فى الزودياك يخلق الصعوبة ويمتلك القدرة على قهرها . وهكذا يبرز أمام العدو عنصر مفاجأة غير متوقع ، حتى وسام أبدى دهشة عندما سمع الاقتراح ، قال أن هذا صعب ، الخليج عات على الزودياك ، مع أن وسام ابن بحر . يعرف ما سيقوم به العدو لو جهز لعملية مشابهة . سيوفر أحدث المعدات لضمان حياة أفراده ، غطاء جوى وغطاء بحرى وربما دفع بغواصة للحراسة ، ثم قصف جوى على الهدف ، وعندما تصبح الظروف وثيرة تماما يدفع برجاله ، من قال احرص على الموت توهب لك الحياة ؟ عندما عاد بعد المطاردة إلى شدوان رأى الزوارق الثلاثة ، راحت نظراته تعدو على وجوه الرجال . ابتسم علاء ، قال : اطمئن يا أفندم لقد عدنا كلنا ودمرنا ثلاثة لنشات معادية ، أدى أبو الفضل التحية العسكرية ، عانقه أبو الحسن ، قال انه فى البداية سادة ارتباك لانهم اعتادوا ان يذهبوا

مع الرفاعي وان يعود هو بهم ، لكنه تقمص روح الرفاعي ، وسأله نفسه ، ماذا يفعل في مثل هذا الموقف ، وأى قرار يتخذ « هكذا عادوا الى شدوان ، عادوا بدونه ، عادوا زورقا وراء الآخر ، يفصل الأول عن الثاني مسافة زمنية لم تحدد من قبل ، ولم توضع في خطة ، لم يهتدئ انهم أبدوا تأثيرهم لأنه حول نفسه الى هدف وأبعد العدو ، لا يعنى هذا ان ايريال الرادار البحرى كف عن الدوران فى شرم الشيخ .

من فوق الصخور القائمة عند نهاية المدق الملتوى بدت صهاريج البترول ، تسعة ، لم يطرأ أى تغيير ملفت للنظر منذ استطلاعه لهذه المنطقة « الصهاريج هنا غير محاطة بسواتر من الطوب لبعدها ووقوعها في منطقة وعرة نائية ، رصد عدة جنود يمشون بين الصهاريج « هذه معالم تغيير ، بالطبع لابد أن تزيد الحراسة في زمن الحرب ، يلتفت حوله ، تشير يده الى عدة جهات « يسرع الرجال منحنيين اليها ، يقف برداء الضفادع البشرية الأسود « المطاطى ، الملتصق بجسده « بدا قادما من عالم غامض . . لحظة التصويب ، التسديد الى الهدف ، تنتشر الشظايا ، ينبطح بعض الجنود أرضا ، تتصاعد هذه الصيحات المدموغة الغامضة النابعة من عمق غير مرئى فى الصدور ، صرخات تكون حاجزا يحجب كل شىء عدا القتال — يرفع يده ، لم تشتعل النيران فى صهريج واحد ،

الصهاريج خالية ، فرغها العدو ، حراسة خداعية ، ليركز الهجوم الآن على الافراد ، يحىء الرد ، يبدأ الحوار النيرانى ، لكن هذه المواسير المتراصة المتجاورة « إلى اين تؤدى ؟ ينظر الى علاء ، إلى مصطفى ، إلى ابو الفضل ، لبيب علاء ، ابو الفضل ، ليأت مصطفى ينحدران بسرعة فوق الصخور ، يمسك المحبس المعدنى ، ليتبعا هذه المواسير « اخطأ عندما تصور أن جديدا لم يصف ، ستأتى النجذات خلال ثلاث أو أربع دقائق » قد يتدخل اهيلو كبر لأن المنطقة وعرة « لكن لن يستخدم العدو الطيران المقاتل يمشى الرفاعى منتصف القامة يمسك المحبس كعصا يتوكأ عليها ، فجأة يشب « على بعد مترين منه يشهر مصطفى مدفعه الأتوماتيكى السريع ، سبعة أنابيب ، قطر الواحد العشرين سنتيمترا ، تنبه الرفاعى الى انها تعبر الصهاريج ولا تتصل بهم ، تتجاوز الموقع ، اين البداية « أين النهاية ؟ يوازن خطأه ، يلتفت حوله ، انه مكشوف الآن ، يمكن لكل الرجال عد أضرار ثيابه من مكانهم ، اما العدو فلن يستخدم جهاز التنشين الآلى اذا ما صوب اليه فوهة ، يدس المحبس ، الانبوب الاول ، الثالث « الخامس ، التاسع ، ما من بتروى ، بعض شفقه « يخطو ثلاث خطوات إلى الشمال « تبدو مشيته مترنحة ، يضوى الرصاص ، يدفق قلب مصطفى حفئات من الدم فى خفقات متتالية « الطلقات ترشق حول الرفاعى « يضغط زناد المدفع « دفعات متتالية ، لم ير أحدا ، لكنه أطلق

النار ، ربما أربك ، ربما أصاب ، يحدث ازعاجا يمنع من اصابة الرفاعي ،
الهدف الواضح الجلى ، أنه يفقر ، شظايا رفيعة ، بقع حمراء على ضوء
النهار ، يتراجع فوق شريط رخو من الرمال محفوف بصخور متدحرجة
متباعدة ، يزداد اقترابا من مصطفي ، إلى الأمام تستقر دفعة رشاش .

يشند اللهب . .

نافورة حادة فحيلة تنبثق من الأرض ، تتضخم ، تنتفخ ، تأخذه
الدهشة ، الأرض ألسنة من النيران البرتقالية ، تختلط بزرقة حادة كضوء
لحام الاكسجين ، يتبدد شتاء سيناء القارس ، ترتفع الحرارة .

البترو . . الانابيب مدفونة . .

يصوب باتجاه الأرض الرخوة ، لن تفرغ جعبة العدو من جديد ،
المواسير الحقيقية تحت الأرض أما الانابيب المكشوفة فللتضليل ، أى هدف
استطلاع جوى يكشف هذا ؟ النيران تستفحل ، مصحوبة بهدير
وصليل ، الدخان اللزج الكثيف يلفه ، يحجبه بعد أن وقف كعلامة تنشين
في أرض مسطحة ، يتساقط فوقه الضوء كله ، الانبوب يقتلع نفسه من
الأرض ، يمتد إلى أعلى مناطق الفراغ ، يعدو بسرعة ، يشير بيده
اليسرى ، يتقدم الرجال عبر مدق واسع وأكثر سهولة ، يؤدي الى البحر ،
يقول علاء . .

.. أمسكت قلبي بيدي .. جعلت نفسك هدفا ..

الرفاعي لا يجيب « صدقة نفذت الطلقات إلى باطن الارض فتفجر
البترول ، إنه يمقت الصدقة التي تنوب عنه في انجاز عمل ما ..
حمدا لله على سلامتك يا أفندم ..

بقايا لهفة في عيني مصطفى ، هل يقول له ان انفجار الانبوب حدث
بالصدقة ، لم يكتشفه بالمحبس ، هل يقول لهم انه يمقت الصدقة لانها
تدفع بالشظية الى الاتجاه الذي تحدده وليس الذي يقدره هو ، انها تنتقي ثم
تندفع ليتطابق الظل بالأصل ، يمر بعينيه على كافة المواقع المرتفعة المشرقة
عليهم ، يمكن رصد اللهب الآن من ضفة الخليج الغربية ، سيستمر
اياما ، الوجوه راضية ، تنظر اليه بقلق واعجاب ، لكنه غير مقتنع ،
لا يتباه ذلك الهدوء الذي يراوده بعد أداء عملية ناجحة ، هل ما جرى
صنعتة الصدقة أم يداه ؟ لا يذكر متى تحدث أمامه أحد الضباط عن شاب
تخرج في الكلية حديثا ، ابتسم شخص ثالث ، قال باعتزاز .. إنه
تلميذى .. إنه صناعة يدى .

اليوم الرابع . .
١٦ أكتوبر ١٩٧٣

فجأة « يصدر أمرا بالتوقف ، يبدو الصمت مضاعفا ، والليل بلا قاع . كأن خطوهم أوجد للصمت صوتا ، ما من شيء اجبره على اصدار الأمر بالتوقف . لكن طول السير ، وصعوبة الطريق ، يجب الأمر بالتوقف فجأة لابقاء حالة الترقب حتى لا يتسرب الخدر بأى درجة إلى الحواس ، الليل لا يفصح عن محتواه ، كل خطوة الى جوفه مهددة بالمباغته ، يطوى الليل من المفاجأة بقدر ما يحققه له من غطاء » إنه يشير باستئناف السير ، مع الرياح التى تمضى من الشمال الى الجنوب تصل اليهم أصوات العدو ، أما أصواتهم فتولى الى الخلف ، الحديث ممنوع تماما خلال المشى » اما

احتكاك الاحذية بالصخور فلا يحدث أى صوت بفضل طبقات الفلين المضغوط ، ينظر الى السماء ، يتأكد من اوضاع النجوم ، الاتجاه صحيح . بحسه يدرك أنهم يسلكون الطريق الصحيح ، لكن لابد من استشارة الاشياء الازلية التى لا تغير مواضعها أبدا ، يتوقف امام ربوة متوسطة الارتفاع ، يلحظ ظلا خفيفا للعقيد علاء ضوء النجوم أو هذا الوهج الخفيف الذى يسبق شروق القمر . فى وثبات سريعة يرتقى الربوة ، يتبعونه بنفس الترتيب ، يلى هذه الربوة مسطح من الارض يتخلله حفر . ثم مضيق صغير يقطعونه جريا تفاديا لخطر الحصار ، يكره القتال وظهره الى مانع الا إذا اجبرته الضرورة ، عند نهاية المضيق توقف ابو الفضل ، فى لحظة الخطر يطلق الاشارة الحمراء ثاقبا سواد الليل ، ثم يشتبك . تزداد الأرض وعورة بعد عشرين خطوة سريعة توقف الجندى الدمياطى والجندى الجرجاوى . كمين غير مرئى يتم اسقاطه خلال المعركة ، من الصعب اكتشافه ، بعد لحظات يبدأ الانتشار ، يتوقف الرفاعى عند مشارف الليل وكأنه سيتسلق الأفق ، توقفه يعنى اتجاه كل منهم الى الموقع الذى ستنصب فيه الصواريخ . من قبل ضربوا هذا المطار ثلاث مرات ، تبدو أضواء مفاجئة . نصل من الضوء الأزرق يشق الصمت المعتم ثم يخففى ، هدير مكتوم . تلتقط اذناه كافة ما يصدر عن المكان ، لو تغير ايقاع تنفس أحد جنوده يرصد الخلل ، يستمر الهدير ثابتا لا يقترب ولا يئأى كخطوات جنود

ثابتة « محلك سر » إحدى العربات المدرعة « تسخن » المحرك ، لم تفارق مكانها ، زفير العادم يتتالى لكن ثبات الهدير لم يتغير « عربية نصف جنزير على الارجح » المؤكد انها ليست دبابة « هذا يعنى أنهم ربما تجولوا حول المطار فى أى لحظة ، آه لو توجد وسيلة تصل بين الطلقة والهدف المرجو ، توجد مسارا لا تحيد عنه المقدمة المدببة « فينغرس الصاروخ فى وسط العربية نصف الجنزير » أو فى ميس الضباط وقت العشاء ، أو فى قلب غرفة عمليات المطار « الآن يمكنهم الانتشار وتركيب الكاتيوشا بهدوء ، الخطر محتمل من الأرض ، الهليوكبتر لديهم لا يطير ليلا الا الضرورة قصوى خاصة فى أماكن وعرة كهذه ، أما الطيران المقاتل فيمكن ان يظهر فى ثوان ، لا يخفى اعجابه بالسرعة التى يستجيبون فيها لمواقعهم المهددة ، فى ثوان يظهر الطيران ، يجب ان نتعلم الأشياء الجيدة من العدو الذى نقاتله وألا نترك له فرصة معرفة الجيد فينا ، عند الحد الامامى لمنطقة عمل المجموعة تحرك بحذر « تجوس عيناه باستمرار ، يحرص الا يبدو » لا يفرد قامته إن الأمر يتعلق الآن بالرجال المنهمكين فى نصب الصواريخ « يرهف السمع ، صفير خفى يسرى فى قلب الريح ، وشيش كأمواج البحر يسمع من بعيد « نداء ناء يجيب على نداء ، أنه يطيل الاصغاء ، يضم شففيه ، ان نصلا نحिला ينغزه حيث لا يرغب ولا يود فى هذا الوقت بالذات ، فى اللحظات الأولى لم يول انتباهه عما يحفل به الليل وهذه الارض التى يحتلها

الغريباء . ليس من المعقول أن يحدث ذلك الآن ، يجيبه شعور حاد
بالبقيء ، يضغط شفته السفلى .

يندس خنجر محمى ببطء فى معدته ، يعرف أن الألم سيتشتر
كبقعة الحبر فوق النشاف « قبض على المدفع ، ألصق مؤخرته بمعدته ، ينتبه الى
ان جسده تقوس « سيلفت هذا نظر علاء ، ان علاء يحمل الأبر المعقمة ،
ما عليه الا ان يقترب منه ويغرسها فى فخذيه من فوق الأفرول ، سيختفى الألم «
لكن مجرد اشارته الآن الى علاء ستحدث ارتباكاً ، سيتساءل كل منهم ماذا حدث
للفاعى ؟ وعليه الا يأتى تصرفاً يؤدى الى ان يشغل اذهانهم بمثل هذا
الاستفسار « تتوغل اسنانه فى شفته ، بهلوه بصق ، يجول بعينيه فى العتمة ،
يجب الا يغفل لحظة ، حماية الرجال من المداهمة مسئوليته ، انه يخاطب معدته فى
صمت ، يعاتبها ، اهذا هو التوقيت المناسب ؟ ليتأجل الألم ، وعندما يصل
بالرجال الى الامان سيستلم للفتك ، لن يقاوم وخزاً ولن يتصدى لهذا التآكل المر
داخله ، لن يسكتة بالأبر المخدرة ، ليمرح الألم كما يشاء لكن ما يرجوه ان يكف
الآن ، ان يهجع ، ان يستكين ، ان يصمت هذا النباح الانحناء قليلاً ، قطرات
عرق ، تهوى به الارض ، قوة خفية تسحب روحه الى اسفل ، هذا الاحساس
المقيت بالانهيار « يهوى ، اثبت ، حلق البصر يرافعى ، ارهف السمع « ألم
تقاس ما هو أقطع ؟ ، ألم تعان الظماً ساعات طويلاً وانت تبحث عن الدورية
المفقودة غرب الفيوم والماء فى يدك ترفض ان تقربه حتى تشعر بالآلام التائهي
وتستحث نفسك على التقدم اليهم « اثبت « صد هذه الطعنة ، لكن آلام الظماً
فى تناول اليد « تحففها جرعة أو يسكنها الأمل « موجات متتالية « انتبه الى
ما يبطنه الليل « قلص وجهك كما تشاء فبعد لحظات ستواجه الرجال ويجب ان

تبدو طبيعيا للغاية ، أى ارتعاشة بادية ستسرى فى أوصال المجموعة ، لو صحت على العقيد علاء فربما يشعر الرجال بأن ثمة شيئا جرى ، عندئذ لا تدرى نفس بماذا سيتصرفون ولا كيف سيعودون ، ترفض معدته الاستجابة الى أى رجاء . ان فليجمع هذا الألم بالألم ، يضغط معدته بالمدفع وتقوص أسنانه فى شفتيه يجب ان يستمر فى غزوة الليل . ان يسدد اليه السمع ، يجب ان يستعد للقتال ، ان يثبث فى المقدمة . لو يصل الى هدنة مع الألم سيستلم له فى القارب وليس عند الوصول الى الضفة الغربية . محال . لن يمكنه دعوة العقيد علاء الى الركوب معه فى نفس الزورق ، سيثير هذا شكوكا ، قفاز من اللهب يلكمه ، انه يخلو بألمه فى مواجهة الليل . يعود المهدير ، نصال الضوء تشق العتمة فوق المطار . يندلع الألم ، ألم يحتمل أوجاعا أشد ، هذا الصداق الذى يباغته ، يشم داخل عينيه وجانبا من رأسه ، تعرف نادبة بعد طول معايشة اللحظة التى يبدأ فيها الألم ، بالمعدة أو فى الرأس .

تمام يا أفندم ..

يحاول أن يبدو طبيعيا ، يجيئ الخطر من الداخل أيضا حيث لا يمكنه إقامة غللات نارية او ستائر دخانية ، يعكسه الوخز ، يتوقف علاء بجواره ، من صوته يدرك انه يتشم .

يا سلام لو نقوم بزيارة المطار ..

يقول الرفاعى

الليلة ستوب الصواريخ عنا ..

يجب الوصول الى الشاطئ في نفس التوقيت الذى تنطلق فيه الصواريخ ،
يتقدم خطوات ، لوطء الأرض صدى وترجيع في احشائه « يقول مصطفى
بصوت خافت :

يا أفندم .. انت لم تبارك العملية .

معك حق يا مصطفى ..

المرّة الأولى التى ينبه أحد رجاله الى عادة لم تنقطع أبدا « يهاده الوخز
لحظات « يجب ان يحجب ما يشعر به ، يتفحص الاسلاك ، و « الفيش » وأوضاع
الصواريخ ، يعود ليتقدم الطابور « يجب الا يلحظوا أن ثمة رياحا خفية تحاول
هز الجزع وأن هجيرا قاسيا يحاول قص الظل ، لكن بعد العديد من الخطوات فى
طريق العودة عليه ايقاعا لحركته لم يقصده ، انه يثق بعلاء وابو الحسن وسمير
وكل من معه « لكن لن تدركه الراحة الا إذا تأكد بنفسه ، سيعتبر هذا نذير
سوء ، كما علمته الايام رصد اى تغير فى خطى ضباطه وجنوده اثناء سيرهم الى
الهدف فربما رصدوا فى عجلته ما يقلقهم الآن ، انه يتوقف وفى اللحظة نفسها
تتوالى الشظايا المكتومة تنقب جدران معدته ، لكنه يجتهد فى الا ينحنى حتى .
سيطول الأمر دقائق أخرى « ولو ، كم من المرات تجاوزوا خلالها التوقيتات
المحدودة ، لن يشكوا فى عودته لانهم اعتادوا منه الدقة .. ينظر الى علاء ..
« سأعود » لابد أن ألقى نظرة أخرى .. اتخلوا أوضاع كمين . ، يشير الى ابو
الفضل :

« سأقدم .. وغطيتى »

اليوم الثالث ..
١٧ أكتوبر ١٩٧٣

عشرون ساعة تقريبا انقضت حتى الآن ، لابد أن عمرات المطار عادت تعمل الآن بعد ان تساقطت فوقها الكاتيوشا ، تعطيل ساعة واحدة في زمن الحرب شيء لا يستهان به « يحتاج العدو الى كل عمر ، الى كل دقيقة من عمر المطار » في مواجهته يعلو الخليج عتيفا كالقدر ، الاسماك الضخمة تأوى الآن الى الاعماق البعيدة « وتندق أجراس الانذار فوق السفن المبحرة ، ويرافق الرياح عويل دائم ، وينظر جنود العدو الى البحر العاصف باطمئنان « لن يأق أحد في مثل هذا الجو » ثم من يغامر بالهجوم مرة ثانية على نفس الهدف ، في نفس التوقيت ؟ في العصر عندما بدأوا تجهيز القوارب التي استخدموها أمس نظر اليهم ضباط البحرية في القاعدة بدهشة ، قال أحدهم لوسام ان البحر قوته ثمانى درجات ،

ابتسم وسام . وقال ان الجميع يعلمون ذلك ، عند الوصول الى الضفة الاخرى
ستدوس أقدامهم نفس مواطىء الامس ، لكن مواقع نصب الصواريخ
ستختلف . سيتجهون الى منطقة مرتفعات صخرية عجوز لا تصلح لهبوط
الهيلوكبتر أو تقدم المدرعات . بل ان المشى فيها امر صعب وكريه . فى الصباح
ابدى علاء سرورا لأنهم سيهاجمون الهدف مرة أخرى ، ما يثيره غير المؤلف ،
مهاجمة هدف مرتين امر ليس جديدا على المجموعة ، لكنه ليس أسلوبا .
لا يعترف الرفاعى بأساليب وطرق ثابتة ، من السهل عندئذ ان يكتشف وان
يرصد . كل شىء فى الكتب ، لكن ثمة أشياء كثيرة لم تدون بعد فى الكتب . فى
لحظات الاستغراق تفاجئه الفكر ، فى لحظة استسلامه للنوم يباغته الحل ، من
حوار عادى مع أحد الجنود يتفجر الاسلوب ،

الآن يرقب رحيل النهار السريع ، لن تمضى لحظات الا ويسدو أول نجم
ساطع . هو النجم الذى يرحل بعد سفر كل النجوم ، يتابع رص الصواريخ .
وصناديق الذخيرة . وتثبيت الموتورات الى القوارب ، عندما ناقش تفاصيل هذه
العملية . قيل له . .

ولكن ذلك ينطوى على مغامرة . .

قال بوضوح :

نعم . .

لم يبيع بتفاصيل . أكد ان المسئولية تقع عليه هو ، ثم أى الامور لا تخلو من
المغامرة ؟ صغرت المواقف أو عظمت فكل موقف يحتوى على قدر منها ، قالوا ان
عبور الخليج فى مثل هذا الجور وتلك القوارب مخاطرة ، قال انها ليست المرة
الاولى . ثم هذا ما لديهم من امكانيات .

تمام يا أفندم . .

يقف علاء صارم الملامح ، كل شيء معد للرحيل « منذ ساعتين قال علاء
انه من الضروري أن يستريح قليلا « نظر اليه معاتبا ، كم يوم ستستمر الحرب ،
الم يقض كل منها عمره في انتظار تلك الايام « من يدري ماذا سيحدث غدا ؟ أم
أن علاء يفكر في خروج المجموعة بلدونه ، قال علاء انه يفكر في الأمر كطبيب «
ضحك ، أما زال العقيد علاء يعتبر نفسه طبيبا ؟

اليوم الثاني . .
الثاني عشر من أكتوبر ١٩٧٣

القاهرة . . كما اعتادوا لقاءها ، لكنها تختلف كثيرا تلك الأيام بعد عودتهم من ضفة القناة الشرقية يصرف قادة الوحدات على بقائهم ، لكنهم يعتذرون ، يحدث هذا العناق السريع ، الموجز ، الرجولي ، الحار ، تتصافح الأيدي بقوة ، في الفراغ الفاصل بين العيون يتعلق رجاء ، نرجو أن يرى كل منا الآخر ، الرمال صفراء ، والملابس صفراء ، والخطر فوق الرموس ، وقصف المدفعية لا يسبقه انذار ، والأيام كأكية اللون معبقة برائحة الدشم ، واضطراب مياه القناة ، والسماك كبير الحجم الذي تضخم وتوحش لابتعاد الصيادين عنه ، وطفوه ميتا بعد كل اشتباك ، ثم الطرق الصحراوية ، وموانع الحراسة وبرز عربات النقل عند المنحنيات ، وجندى وحيد يمشى فوق الرمال حاملا صفيحة مياه ، أو طعام أو شاي بينما لا تبدو على مرمى النظر منشآت أو مباني ، حتى ليظن المرء أنه يتوجه بمشيئه إلى تلك الصحراء الفسيحة . ساعة

ونصف كانت تفصل القناة عن القاهرة ، فجأة تبدو عمارة حديثة ، وتاكسى
اجرة بلونيه الاسود والابيض ، ثم تعبر الطريق فتيات ، وشبان ، وعربة يقودها
رجل مطمئن الملامح . ثم اعلان سينما ، كان العقيد علاء يظل منحنيا ، يميلق
في كل ما تقدمه المدينة مع العودة . يتساءل ، احقا هذه بلدة لا تبعد عن العدو
أكثر من ساعة ونصف بالسيارة . احقا لازلنا في بلد واحد . ثم يشير الى مجموعة
شبان . شوف ، هل يشعرون بنا ؟ يصغى الرفاعى ولا يعلق . أحيانا تستغرقه
العودة الى المدينة . الى تلك الشوارع التى احب المشى فيها صباحا . تلك
الساعات التى يبدو فيها ضوء النهار شفافا ، يبدو كل ما يحيطه كأنه يرى من خلال
زجاج لا ملمس له . تلك الطرقات المتوازية بعيدا عن الضجيج ، الشارع الذى
كانت تطل ناديه من احدى شرفات البيت الأول فيه ، فى الخامسة عصر كل يوم
تقف . ويحيى متهللا ، هكذا اتفقا فى التليفون ، ويراهما هدفا ساطعا .
ويرصد ضوءا خفيا لا تتلقاه الا عينيه هو ، يستجيب قلبه فيخفق ، هكذا زمنا
لا يرى كل منهما الآخر الا لحظات ، كثيرا ما أوقف سيارته اثناء نقله وحيدا
ليمشى فى هذا الطريق الذى تبدو البيوت فيه مأطرة بالخضرة . والستائر مسدلة
موحية بالاسرار . يود لو يرحل الى كل مدينة قضى بها زمنا ليرى بيتا ، أو جرما
فى مدرسة كان ينتظر رنينه بلهفة ، أو « كوبرى » خشبى فى بلقاس ، وذلك
المسجد المورق بالسنين فى ملوى ، والمدق الترايبى المؤدى الى جبل درنكة
باسيوط ، والقوارب التى تعبر النيل من الغرب الى الشرق بالأقصر ، وتسلق
الجليل الفاصل بين معبد الدير البحرى ووادى الملوك ، وتلك الصخرة غريبة
اللامع فى اسوان ، والمبيلة الناقصة ، والمرتفع المؤدى الى ضريح أبو الهول ، هذا
الشارع المائل بالحنين المؤدى بالأشواق الى البحر فى الإسكندرية ، والوادي
البطن بأشجار من حجارة فى الصحراء الشرقية ، والمقابر المنقوشة فى كهوف لم

يرها احد ، الوقوف عند سفح جبل الجلالة « وعيون تتدفق منها المياه في اقصى منطقة البحر الأحمر ، ومدخل البيت ، يود لو لم نفسه من كل جزء عبره يوما ، ان يرى كل هذه المناطق بنظرة واحدة » في كل مكان أودع قطعة منه ، وترك مقدارا من عمره ، انه يفهم علا ويدرك حدثه ، لكنه لا يناقشه « تنه جاء الى الدنيا ليقاتل عن كل الذين مر بهم وعرفهم أو مشوا معه وحاوروه في تلك القرى والمدن عن كل من يعيشون في هذه المساحات التي طار فوقها بالهيلو كبر وبالاتينوف وباليوشن « كل من ورآهم يرشفون الشاي في المقاهي ويحتفلون باعياد الميلاد ، ويحسمون بالنجوى ، ويوجود ويتناجون ويفكرون في أى شيء سيأتى به الغد ؟ عن كل المارين بجوار مرقد الحسين ، والدائرين حول ضريح الامام الشافعى « والساعين الى سيدى القولى « والمقبلين لضريح السيد ، والواهبين لنورهم لسيدى عبد الرحيم القناوى ، وسيدى الليث ، وهؤلاء السيدات المرتديات السود « المتجهات الى الاسواق الصغيرة المقامة بين القرى ، الحاملات فوق رؤسهن بضاعتهم ، يقابضن ويجادلن ويدخرن القوت لاولادهن ، صاحبات الوجوه المرهقة بزمن ثقل الوطأة ، اذ يراهن يخفق قلبه تأثرا « ويود لو قدم مساعدة « أو ابدى ما يخفف حمل الأيام ، تمز ملامح الامهات المصريات التي تحمل بصمات الصراع مع الزمن والرجاء في الهدنة معه ، ملامح لم يرها في أى بلد آخر ولا على اية ملامح اخرى ، لا يضايقه ان الواقفين بالشوارع « أو الجالسين بالمقاهي لا يدرون بما يقومون به ، ليس لان اعمالهم قدر لها أن تولد أو أن تنتهى في كتمان كثيف ، انما لانه جاء الى العالم ليحارب لا لكي يقوم بأى شيء آخر ، يقاتل عن هؤلاء ليؤمن النظرة الهادئة في العيون ، يسع من يسعى بلا خوف ، ربما يرجو منهم قدرا من المبالاة ، لكن ما ذنبهم ؟ كثيرا ما قال لعلاء « للناس في بلادنا خاصية تختلف عن كل ما نعرفه ، فلتتشب الحرب »

لمصغ الجميع الى أول بيان من الراديو ولتنظر الى ما سيبيده كل منهم .

ها هي البيوت غارقة في النعاس ، شبان يرتدون لباس المقاومة ، يقفون مجهدين ، بأيديهم مصابيح يدوية ، لكن لا سلاح ، لنفترض أن دورية معادية فاجأت هؤلاء ، كيف سيقاومونها ، تتوالى النواصي أحد الرجال ، يبدو كمساريات بالسكك الحديدية أو امثرو يلوح لهم بيده ، يرفع يده بالتحية « هذا التضامن الخفي ، المدينة لا تتجاهل عودتهم هذه المرة ، تستدير مقدمة السيارة » تتجاوز البوابة الخارجية يرتفع الحاجز الخشبي ، المبانى يحيطها ضباب خفيف « يلم بكافة التفاصيل . . اذن قدر له أن يرى هذا كله مرة أخرى ، لا يذكر متى توقف في الحديقة المؤدية الى المكتب « فوجيء انه يحتوى ما حوله بعينين غير عينية « عينا مجهول بقى في الدنيا بعد رحيله ، توقف لحظة « لماذا فكر هكذا ؟ وأي حالة غريبة هذه ؟ انه ينظر الآن الى المكان كله ، يصغى الى حرارة اللقاء بين الذين بقوا والذين عادوا ، يقبلون عليه « يعانقونه ، يستدير حول المنضدة المثقلة بالاوراق والخرائط ، هل يدير القرص ؟ كل يصغى الى صوتها الذى سيبدو هادئا ، في الايام البعيدة كانت نادبة تنتظر عودة الهليو كبت ، وترمق الطائفة من موقعها في شرفة البيت ، لكن أكثر طائرات الهليو كبت الآن ، فقط يدير القرص ويحيىء صوتها ربما تصغى في هذه اللحظات الى اذاعات العالم ، لكنه لا يمد يده انه يحجل « كل رجل هنا يتوق الى رؤية أولاده أو سماع صوتأمله ، انه يقف أمام الخريطة الضخمة الممتدة بعرض الحائط ، يستقل من بالوظة على البحر الابيض الى رأس محمد في الجنوب ، يخلق بعينه فوق الخليج ، شلاطيم ، رأس سدر « كيف تبدو مياه البحر الآن ؟ كم سرعة ارياح في الخليج ، قوة البحر في اشمال « وقوة التيار في القناة ؟ ما هي أوضاع القوات ؟ كم لغنا رصه العدو

حول مستودعات البترول هذه ؟ واين تتجمع احتياطات العدو ؟ كيف يمكن
تقليل الخسائر ؟ كيف يبدو الشروق في كل موقع من مناطق القتال ، كيف تبدو
الشمس فوق المعابر ؟ عند الحد الامامي داخل سيناء ؟ كيف يراها محارب جرح
الآن ؟ بالضبط الآن .. يذق جرس التليفون ..

- صباح اخير ..

.....

- تمام .. علم يا أفندم ..

الجمعة ، التاسع عشر
من أكتوبر ..

تنوالى الانفجارات ، طلقات مدفعية سريعة ، صاروخ يتمزق منفجرا «
تنطلق فانتوم فى خط مستقيم متجهة الى عين الشمس كأنها ستهبط هناك ، فى
اثرها طائرة ميج تمسك بذيلها ، بدا فى المطاردة ملمح انسان كأن شخصا يعدو
وراء الآخر ، لكن لم يرصد أحد لحظة اطلاق رشاشات الميج :

يقول الرفاعى انه سيتقدم الى اقصى حد ممكن ، وان مصطفى سيصعبه .
يقول علاء ان الموقف غامض « والتقدم فيه مخاطرة لهذا يرجو ان يقوم بمهمة
الاستطلاع هذه ..

يقول الرفاعى بهدوء ان مهمة الاستطلاع ستم كما حدد هو ..

يهوى انفجار هائل من السماء « تفرقع اصدااء متتالية ..
يقول علاء انه من الضروري ..
يقول الرفاعي ..
علاء .. هذا أمر ..

ماذا يحمل هذا النهار بين طياته ؟ أول مرة يتحدث فيها بصيغة الأمر ، وإلى من ؟ إلى علاء ساعده الأيمن وسنده « انه يشير إلى مصطفى « تلف عجلات الجيب في الرمال « تثب « تراجع ، تتقدم مخلقة غبارا أصفر ، ينطبق رشاش بعيد في عصبية « يتوقف فجأة « يستدير « يود لو يلقى عليهم نظرة « ان يثبت الملامح في ذهنه « أجل هذه النظرة حتى يبتعد عنهم عدة أمتار « لكن هذه الثانية من الأرض أخفتهم ، حالت بينه وبينهم فلم يعد يراهم ، ينحن مصطفى إلى الامام « جنزير دبابة مفروود كئيبان همدت حركته فلم يعد قادرا على التلوى « الرفاعي يتأمل الجنزير ، جنزير مغطى بطبقة من الكاوتشوك ، وصلوا إلى هنا اذن وتمكنوا من سحب جسم الدبابة ، ربما حدث هذا ليلا ، جنود يلوحون بأيديهم علدين ، يلتفتون إلى عربة الجيب بدهشة ، إلى اليسار يتصاعد عامود من اللهب الحاد « تتخلله بقع سوداء متطايرة « عربة مجنزرة « توباز « يتبدل رأس تفحم من الفتحة العليا ، بدت التوباز مصيدة محكمة للأعمار ، فوارغ دانات « بلمح الكلمات العبرية بسرعة ، وصلوا إلى هنا ، لكنهم غير متواجدين الآن ، يتجولون في المنطقة ، لم يستطع تحديد عدد الجثث التي تختلط ببعضها على جانبي الطريق ، هرستها الدبابات ، لم ير عضوا سليما واضح المعالم ، رأى حذاء يطل منه بقايا قدم ، ورقبة مشطوفة ، خنلق مطمور ، يميز شفتيه « احدثوا هذا عمدا ، يقيمون معرضا للقرع والرعب ، يملا قلبه حق ، تتوالى الجثث

المتراصة « في خياله يرى كل الأحبة الذين يعرفهم في موقع هؤلاء الذين لا يعرفهم ، يرى مصطفى ورفقة العمر من اليمن حتى هذه اللحظة ، علاء ، شقيقه سامى وملاحه الطيبة ، وخجله في مواجهة الغرباء ، زيتون بيده المقطوعة ودابة الهائل حتى تصبح اليسرى أشد فاعلية ، أبو الفضل وانتمائه العميق لمجموعة ، نظرة الود في عينيه « في الطابور « بعد العملية ، في رقائه بمستشفى المعادى « يدى وسام « شريف ، تلك الأعمار التى لازالت في بدايتها ، الملامح التى يراها في وجوه المجندين الجدد « هذا العدو الدموى الجبان الذى يهرس جثة ويطمس خندقاً بالجنازير يستهدف كل الأحبة ، ارادوا بث الفزع ، لكنهم استثاروا فيه الكرامة وغضب مر ، واستغزوا فيه الحق ، لماذا جلد الموتى ؟

قف هنا ..

تتوارى السيارة خلف مرتفع رمل ، تاز صواريخ أرض - أرض فوقهم ، رشقة قوية لم تتبعها أخرى ، يصبح انسان في مكان قريب ، تنفذ الصيحة خلال عدة انفجارات « لكنه لم يستطع تمييز اللغة ، خلف الكتيب انكفأ جندي « وجهه مدفون في الرمال ، خيط دم نحيل يصل ما خلف الاذن اليسرى والارض الرملية ، في العودة اما أن يدفن الجثمان أو يعود به ، في السماء ينطلق وهج ابيض نحيل اخترق ضوء النهار « الى اليمين على بعد حوالى خمسين مترا سكوت ايرى قاعدة الصواريخ ، عربية مقلوبة امام الدشمة ، الصواريخ ، متناثرة ، فوق مقدمة احدها تعلق جثمان هامد ، بدا كأنه محمول على مقدمة رمح غليظ هائل تمسكه أيد خفية لا ترى ..

يشير الى القاعدة . .

سأبقى هنا . . اذهب ودمر كل شيء . .

يسرع مصطفى « حذاؤه ينثر الرمل » من بعيد يختلط لون الأشجار بصفرة الرمال ، تتصاعد النيران من اماكن متفرقة ، عربات نقل دهستها الدبابات « عربات مدرعة ، تحترق » ينظر الى السماء « يبدو على الطائرة ذعر انساني » من هدير صوتها ادرك أنها ميراج ، ان ثمة احساسا يبدأ لديه ، عندما يشعر في المكان الذي اعتاد عليه انه ليس وحيدا ، وان ثمة غرباء يرصدونه « لحظات ما قبل اكتشاف الهدف » تستقر الحواس ، الميخ تنقص من أعلى ، لاتزال ظهور الطيران يثير فرحة ، احساس متبق من حرب الاستنزاف ، بتوقف عن التجول بعينيه ، يركز البصر في اتجاه الخفزة ، يفصل عن الاشجار جسم معدني محدد الخطوط والملامح ، تتحرك يده بالمدفع ، ينظر من خلال دائرة التنشين « باتون ام ٦٠ » تتوقف الدبابة لحظات ، يتحرك البرج يمينا ثم يستدير الى الشمال قليلا « لم تستقر بعد على اتجاه محدد ، كأنها تضبط توازنها ، من حركة المركبة يستشف ما يدور داخل أفرادها ، هذه الدبابة حذرة ، يبدأ صوت رشاشاتها ، تظهر طريقها ، تتركز المقدمة داخل اطار التنشين ، يضغط . .

بسرعة يتناول مقذوفا آخر ، سخنت الماسورة قليلا لكنها لن تحتاج الى تبريد الا بعد أربع ، خمس قذائف ، في البداية ولدة أجزاء من الثانية كأن شيئا لم يحدث ، يغوص النصل في الجسم ثم يتدفق الدم ، الآن ينفجر الهب ، دخان كثيف ، له قوام ، تبتعد عيناه عن الدبابة « هذه الأرض تخفى آخرين ، تتردد صيحات متباعدة « الله أكبر . . الله أكبر . . يجري مصطفى ، تنفجر دانة

خلفهما « ترتفع حرارة الجو ، يدوى انفجار ازرق هائل ، يتميع لون الفراغ ، يغطي الهواء دخان رمادي ، كأن الشمس انشطرت ، فوق قاعدة الصواريخ السنة لمب بطيئة كأنه حريق في مستودع كيمائي في نفس الوقت يبدأ انفجار ذخيرة الدبابة ، ثم تنفجر الدبابة نفسها يقول مصطفى ..

فجرت كل الصواريخ .. احترق كل الاوراق ..

يصبح الرفاعي ..

مصطفى ..

من الخضرة تبدو دبابة « ثم تخرج دبابة أخرى « ومن الرمال الصفراء المرتفعة تطل مقدمة دبابة « وياتجاه القناة تبدو عربة نصف جتزرير تحمل مدفع هاون ، وفي السماء أزيز طائرة هيلو كبر ، تظهر ثلاث طائرات تطير في خط مستقيم ، من مكان ما ينطلق مدفع يشعل النيران في دبابة ستوريون ، لكنها تستمر في التقدم ، تتوقف فجأة ، تتجاوزها دبابتان ، على مرتفع مجاور تتناثر نباتات صحراوية شاحبة في السماء ينطفئ بريق النهار « يتكاثف الدخان حتى يمكن النظر الى قرص الشمس من خلاله ، يضغط الزناد ، يناوله مصطفى الدانة يدوى صياح جماعي في موقع الى اليسار ، يرتفع غبار في المواجهة ، تواصل اصوات الرشاشات سريعة ، لاهثة كماكينات خياطة تعمل في ورشة فسيحة بلا سقف ، يرتفع صياح من أماكن متعددة « تحترق دبابة أخرى « وفي الفراغ ترف دانة هاون كرمش العين اذ يهتز بسرعة مطلقة ازيزا كمنحلة تهوى ، ويعيدا يتوارى النهار الازرق الشاحب ..

اليوم الثانى . .
الثامن عشر من أكتوبر ١٩٧٣

القاهرة . . كما اعتادوا لقاءها ، لكنها تختلف كثيرا تلك الأيام « بعد عودتهم من ضفة القناة الشرقية يصرف قادة الوحدات على بقائهم ، لكنهم يعتدرون » يحدث هذا العناق السريع « الموجز ، الرجولى ، الحار ، نرجوان يرى كل منا الآخر « الرمال صفراء ، والملابس صفراء ، والخطر فوق الرؤوس ، وقصف المدفعية لا يسبقه انذار ، والأيام كأكية اللون معقبة برائحة الدشم ، واضطراب مياه القناة ، وطفوه ميتا بعد كل اشتباك » ثم الطرق الصحراوية « ومواقع الحراسة وبروز عربات النقل عند المنحنيات ، وجندى وحيد يمشى فوق الرمال حاملا صفيحة مياه « أو طعام أو شاي بينما لا تبدو على مرمى النظر منشآت أو مبان ، حتى ليظن المرء انه يتوجه بمشيئه الى تلك الصحراء الفسحة ، ساعة

التكوين

قبل ظهر السبت الحادى عشر من يونية عام ١٩٦٧ ، وقف النقيب بحرى وسام عباس فى منطقة لسان بور توفيق ، حوله تخلخل النظام ، وانفرد « عشرات الضباط والجنود عبروا القناة اما فى قوارب أو سباحين » وفى السويس انشئ مركز لتجميع الشاردين ، فيما بعد استعداد كثيرا هذا اللفظ ابن تلك الأيام ، الشاردين فى الواحدة ظهروا ، جنديان توقفوا فوق مرتفع من الارض ثم انضم اليهم ثالث فراجع فخامس ، رأى لأول مرة الزى الاسرائيلى العسكرى بلونه الزيتونى ، الاكمام المثنية حتى منتصف الذراعين « ومن عدستى المنظار رأى وجها ابيض ، طويل الشعر » من الخلف دفعوا بطابور من ثمانية أفراد ، يذى كل منهم مربوطة الى الخلف «

أوقفوهم بالقرب من المعديّة ، ابتلع النقيب بحرى وسام لعبه ، وفي هذه اللحظات عرف قلبه هذه الظاهرة التي أصبحت تلازمه فيما بعد . دقائق مفاجئة كأن دماء مرت من قلبه مرة واحدة ، تصل آثار الخفقة الى أطرافه . ويسرى خدر في مؤخرة رأسه . قال العقيد علاء ان قلبك عصبي وأصحاب هذه القلوب يعيشون طويلا . لسبب ما أدرك أن هؤلاء الثمانية حفاة وان اقدامهم متورمة مع انه لم يرد ذلك ، طاف العدو حولهم مشهرا رشاشات العوزى ، من الواضح انهم أوقفوهم فوق مكان مرتفع حتى يراهم كل من يختلس النظر أو يحملق من بور توفيق أو الشاطيء العريض الذى استلقى عاريا من المواقع والدشم والاسلاك الشائكة ، تقدم أحدهم ، كان نجلا ، وبدا المشهد كأنه اعد بعناية ، طاف العدو النحيل حول الثمانية مرتين . صفع الاول ثم صفع الخامس ، وامام الثامن تراجع قليلا الى الخلف ، وفي هذه اللحظة رأى النقيب بحرى وسام عباس يده ممسكة بمسدس مشهر ، عاد العدو يمر أمامهم وكأنه يستعرضهم ، ثم رفع المسدس الى منتصف جبهة الأول من اليسار . . طلقة . . سقط خطأ خطوة ، طلقة ، سقط الثالث ، طلقة . . سقط الخامس ، طلقة . . أخرست الى الابد الذعر الانسان الذى بدا واضحا على السابع . قال النقيب بحرى وسام عباس الذى خاض فى الدم بعد ذلك خوفا ، انه ما رأى طوال حياته اشنع من ذلك قط ، اربعة قتلوا بالصدفة وبالاختيار

الحر من العدو ، واربعة بقوا على قيد الحياة بفضل مكان الوقوف ، امسك العدو بوقا يدويا ، وصاح طالبا صناديق الكوكاكولا قال ان هناك عددا من الضباط والجنود ، مقابل كل انسان زجاجة والا سيلقى الجميع مصير هؤلاء الاربعة ، عندما وصل الاربعة الاحياء الى الضفة الشرقية تقدم منهم ، كان أحدهم ينظر في اتجاه واحد « متحمم الوجنتين ، مقدد النظرات ، يستدير كيفما يوجه » يقولون له أمش فيمشی « ويطلبون منه الوقوف فيقف ، اذا ترك مكانه فلا يهتز مقدار شعرة في انتظار من يقول له افعل كذا ، غير ان ما جرى لم يكن النهاية ، حوالى الثانية تجمع عدد كبير من النازحين القادمين من أعماق سيناء ، من غزة والعريش « مرة أخرى عادت المعدية التابعة هيئة قناة السويس ليفتدى كل انسان بزجاجة كوكاكولا ، لم ينقطع العويل والصراخ منذ ظهورهم غير أن العويل الذى ارتفع فى الساعة الثانية والثلاث اختلف ، كانت الشمس تحولت الى النصف الآخر من السماء فأتاح ضوءها الفرصة لبروز التفاصيل ، وهكذا أدرك عندما بدت مستميتة فى شد تلك الفتاة من بين أيدي أربعة « عدو » ، ارتفع مدفع رشاش وهوى فوق جبهة الأم ، وخرس الصراخ الممدود ليستمر الصراخ المتقطع ، سحبوا الفتاة الى كشك من الصفيح المضلع لم يكشف وجوده الا فى هذه اللحظة . لم يدر من أقامه ، ولا لأى غرض ، قبل وصولهم الى الكشك رفع بندقية تناولها من احد الجنود سددهم الفوهة الى

رأس جندي عدو ، غير أن يدا امسكت معصمه « ضابط برتبة مقدم ، طويل اللحية « منهك الحدين « قال سيقتلون كل هؤلاء »
واشار الى الواقفين فوق الضفة الشرقية ، وإلى الواقفين فوق الضفة الغربية ، ساد صمت ، كان بداية لهذا الصمت الثقيل الذي استمر يراه كلما اقترب من القناة أو عبرها ، حوالى الثالثة خرجوا بالفتاة « القوها فى قاع المعديّة ، جاءت إلى الضفة الغربية بلا أم ، ممزقة « مستورة بشال رجل عجوز وبين فخذيهما سالت دماء ساهم فى نزفها ستة عشر « عدو »
عندما نظر اليها رأى وجها عمره عشرة او خمسة عشر ، وشفاه لم تلثم ولم تنفتح ، لماذا يحدث هذا للنساء دائما فى الحروب ؟ لماذا هن الضحية باستمرار ؟

فى تلك الأيام كان العقيد علاء يسأل نفسه ، ماذا نفعل ؟ لم يغادر مكتبه بإدارة المخابرات لمدة اربعة أيام متصلة ، قرأ تقارير واردة ، وخطابات صادرة « ونشرات معلومات ، وملفات تتضمن ما قالته الاذاعات المعادية « الاذاعات الصديقة ، طلب وكرر الطلب لكى يذهب الى الجبهة « قيل له ان الموقف غامض ، ويجب عليه البقاء لممارسة عمله كطبيب ، أخذه الضيق حتى كاد ييكنى فسب ولعن فى غرفته عندما انفرد بنفسه ، وطافت به خواطر قاتمة ، كيف يوجد السبيل لمضيه بمفرده ، يعبر ويقاقل . وتساءل لأول مرة عن جدوى استمرار عمله كطبيب والبلد

تدهور ، في تلك الأيام جاءت انباء غير مطمئنة تقول ان لواء اسرائيليا مدرعا يتقدم على الطريق الساحلى المحاذى للبحر الابيض ، والهدف ، احتلال مدينة بورفؤاد ، وان العدو لن يلتزم بوقف اطلاق النار ، لم يكن هناك شيء مؤكد فعيون الاستطلاع مظفأة في هذا الوقت بتلك المنطقة .

ما من احد يدري بحقيقة ما يقال ، وبعد مناقشات واجتماعات تمت في عدة جهات استقر الرأى على دفع دورية استطلاع محدودة العدد لاستطلاع الموقف ، ونقل ما قد يطرأ ، فتجلى الحقيقة ، وتكشف المستور من الانباء ، وفي نهاية هذه الاجتماعات قال ضابط كبير برتبة لواء ردا على تساؤل حول من يقوم بهذه المهمة ، انه يعرف ضابطا شجاعا يلح عليه منذ ايام للقيام بعمل فدائى ضد العدو المتقدم على المحاور في سيناء . ابل بلاء حسنا في حرب اليمن ، وحصل على ترقيتين استثنائيتين ، ويحمل وسام النجمة العسكرية . واسمه معروف لكافة وحدات الصاعقة اذ انه من جيل المعلمين الأوائل بها ، وهو ضابط شجاع ، جسور ، قلبه جامد ، تساءل احد الضباط ، من تقصد يا سيدى ؟ فقال انه يقصد العقيد اركان حرب ابراهيم الرفاعى ، عندئذ أوما الضباط المجتمعون ، وقالوا ، بلى ، لقد سمعنا عنه ، فقال الضابط ، وفي هذه الايام لا أرى أحسن منه ولا ابدى احدا عنه ، ولا اثق الا به . ثم انها فرصتى لا تخلص من الحاحه . وأدفع عنى ازعاجه ، اذ انه يود الذهاب الى الميدان ، ولا يفتنع

بما اسند اليه من مهام هنا ، قيل له ، حسنا اخترت ، ليلغ بالمهمة ، بعد لحظات استدعى الضابط الكبير برتبة اللواء ، الرفاعى ، وعندما جاء بدا حزينا فى وقفته ، مزمووم الشفتين ، منطفئ الابتسامة وفى عينيه أسى عظيم ، وكأنه لم يذق النوم من ليال طويلة ، وبدا يخفى من الحديث اكثر مما يقوله حتى لو تكلم ساعات ، قال له الضابط الكبير ، استعداد للقيام بمهمة ، الم تطلب منى الذهاب الى الجبهة ، قال الرفاعى ، بلى فعلت ، قال الضابط الكبير ، جهز نفسك ، ثم بسط له الخريطة وأشار الى الخطوط والمنحنيات ، والدوائر الزرقاء والعلامات الحمراء ، والمربعات ، والاسهم ، طلب منه اليقظة والحذر ، وأخبره ان التعليمات تقضى بالا تشبك أبدا ، ليستطلع ويرجع بالأخبار ، ليكشف الغموض ، اطرق لحظة ، وقال من ستصحب ؟ فقال الرفاعى إنه سيصحب من يقع عليه الاختيار ، ولكن من ناحيته هو يتقدم باسم الجاويش مصطفى ، أحد جنود الصاعقة الذين حاربوا معه ورافقوه ، فتساءل الضابط ، أين هو الآن ، قال الرفاعى إنه بمدرسة الصاعقة ، فرفع الضابط سماعة التليفون وطلب استدعاء مصطفى ، ثم قال إنه يقترح ضابط طبيب يعمل هنا فى الإدارة ، حصل على فرقة صاعقة ، وفرقة استطلاع ، وفرقة غطس ، فعل هذا وهو طبيب ، لكن لشغفه بالقتال وحبه للشقاوة يبدو انه نسى الطب ، ولم يتسم الرفاعى لدعاية الضابط فلم يكن فى صدره مجال

للابتسام فى تلك الأيام ، بعد لحظات ، دخل علاء إلى الغرفة تسبقه نظراته الحادة ، وللوهلة الأولى أدرك الرفاعى أنه بازاء مقاتل لم يسبق له رؤيته ، لكنه اوق حاسة فريدة « وقدرة عجيبة على التقاط جوهر الآخرين » لم يظهر ذلك ابدا « ولكن عرف هذا عنه « مد علاء كفا كبيرة « طويلة الاصابج ، صافح الرفاعى ، وقال انه سمع عنه « لكن لم يسعده الحظ بلفائه « وهنا قال الضابط كبير الرتبة « ان الوقت يجرى ، وعلى الرفاعى أن يعطى « تمام » فى الخامسة عليه ان يختار عددا محدودا من الجنود « وان يحدد معداته « وان يستعد للتحرك بعد آخر ضوء « وعندما سأله ، أى طريق سيسلك ؟ قال انه سيتخذ الطريق المحاذى للقناة « قاد السيارة عبد المؤمن ، إلى جواره الرفاعى « وخلفها علاء ، ومصطفى « وجندى من الصاعقة اسمه أبو الفضل « وجندى آخر اسمه الجرجاوى « فى تلك الأيام كانت كثافة الحركة تمضى فى اتجاه معاكس لطريقهم ، الكل يعود من سيناء ، عربات تحمل معدات مهشمة « يتعلق بها جنود مرهقون ، لم تخلع احذيتهم منذ ايام ، والمدافع مكشوفة الفوهات ، الكل يعود والرفاعى ذاهب ، لم يتبادل كلمات كثيرة مع من صحبوه « لكنه ادرك أن شيئا بدأ ، وان امرا لا تدركه عين ، ولا يحيط به فهم قد ولد ، لم يدرك طبيعته « ولم يفسر ماهيته « لكنه مع الحركة انتهى حالة التوحد ، وبدأ يقهر الكتابة ، لم يعد يواجه احزانه وحيدا ، كأنه يعرف علاء منذ

سنوات ، عندما عبرا القناة الى بور فؤاد نظر الى الأفق حيث السماء والبحر يلتقيان ، وقال لنفسه « تلك أيام تتقرر فيها المصائر الكبار صباح اليوم. التالى قد ضم تقريره إلى الضباط كبير الرتبة وعندما آذن لقاءهما انتهاء » اقترح اقتراحا محمدا « هو القيام بعمليات محدودة شرق القناة » أعمال في الخفاء ، لكن ستعرفها القوات المسلحة ، الهدف منها بث قدر من الثقة « أعمال محدودة لكن خارقة » ثم قال انه يعرف الرجال الذين سيقومون بها ، اصغى الضابط كبير الرتبة ، وعد بنقل الاقتراح فورا ، في ذلك اليوم اطل الرفاعى على الصحراء الممتدة ، لكم أحس بالألم عندما خطا حذرا فوق أرض طالما جال وصال فوقها ، لا يستطيع أن يمضى الآن اليها الا متسللا ، سيحول دونه عدو ، لكن الجبهات لا تنتهى بالنسبة للمهزوم ، ما أكثر الجبهات التى يمكنه أن يحارب فيها ، يبدو الجسد هائلا ، قويا ، لكن اكتشاف نقاط الوهن وتسديد ما يوجع ويؤلم ويفرى الحشاء » الصراع لا يدور فقط ضد هياكل خرسانية ، وحصون ، ودبابات ، ومدافع سريعة ، واخرى ثقيلة ، الصراع يجب ان يشن ضد هذا الخور في النفوس ، الثقة التى اهتزت وتدلّت مهتزة في بثر القلوب « بالأمس قال لضابط برتبة نقيب ، سنقوم من جديد ، نظر اليه الضابط بعينين منكسرتين « هذه الانحناء الخفيفة التى تجعل مساحة العنق اكثر مما هى عليه ، يبدو معها متأهبا للصفع ما منع الضابط من الرد الصريح الا اللياقة

التي تقتضيها التقاليد ، ابدى ما يبطنه في نظرة آلت الرفاعي وحدثت به
جرحا لم تسببه اداة من صنع بشر ، انما احدثه نيزك هوى واحترق به جدار
القلب تلك النظرة المنكسرة هدف ، كيف تتحول من نقيض الى آخر لكن
النظرة وما تعنيه ليست قاصرة على العينين ، الم يرها في كل ما يحيطه ، الم
ير الشوارع منكفئة ، والبيوت مطرفة ولولا جهد من أعمدة الخرسانة
لأقعت فوق الأرض من الخجل ، ألم يتغير لون السماء ، الم يبرد قرص
الشمس قبل الأوان ؟ الم تتحول سمات يونيسو اليلية الى وخزات تأتي
بالهم . وتقتات منها البلايا ، الم يتأثر الود المرسل من العينين الى العينين ؟
المرارة في اللقمة ، ورشفة الماء لم تعد مجدية ، كيف يغرس الخنجر فيما
لا يمسك بيد ، وما يستعصى على الأبصار ؟ بعد العودة ادرك انه يلوذ
بعلاء وأن علاء يستظل به ، أما مصطفى وأبو الفضل فثمة ما يشده
اليهما ، هؤلاء هم الذين لا يشعر معهم الانسان بخوف اذا فاجأه الموت ،
ما قضوه من وقت في هذه المنطقة التي يحدها البحر المتوسط من ناحية
وبحيرة البردويل من ناحية يشبه عمرا ، قال علاء انه ظل طبيبا الى اللحظة
التي دمر فيها الطيران فوق الممرات ، أشار الى الصحراء ، فقال انه متفرغ
للعُدو ، اما هو واما هم ، وقال ان العالم لا يتسع لوجودهم معه .

في اليوم التالي لليوم التالي الذي تم فيه الاستطلاع قال الضابط
كبير الرتبة ان موافقة مبدئية تمت ، بمعنى ادق ، لقد التقى اقتراحه بالنوايا

الموجودة ، وأن الكثيرين ابدوا ارتياحا لتصدى الرفاعى لهذه المهمة وإن ضابطاً كبيراً من هيئة الأركان قال إن الرفاعى يحفظ سيناء عن ظهر قلب »
وانه قام بالعديد من الدوريات فى صحارى مصر ، وعندما يعرف هضاب الصحراء الشرقية ووديان الصحراء الغربية ، وعندما تتوه دورية فى الصحراء فافضل مقتف للآثر هو الرفاعى ، وانه يعرف المدن من اضوائها عندما تبدو للمحلق بالطائرة ، ومن أهلة مآذنها ومبانيها » كما يعرف المحافظات من تعرجات النيل وضيق واتساع المساحة الخضراء » فى الهليو كبتّر يعرف بعدكم من الثواقى ستشوق قمة جبلية ، وأى الممرات تخلو من دوامات الهواء » يشم هبوب العاصفة » ويدرك من لون السماء متى يجيئ المطر ؟ قال الضابط بهيئة الاركان ان الرفاعى قلبه اطللس حى مصر .

منذ هذه اللحظة لم يهدأ ، وما اعتمل داخله صار يعمور خارجه ، بدأ فى تحديد الاهداف » جاء بالخرائط ، والمعدات ، وصباح أحد الايام مضى الى سلاح المهمات ، وشرح كل ما يريده ، ورسم بخط يده تصوره لما ستكون عليه ملابس المقاتل جنديا كان أو ضابطا » وحدد عدد الجيوب ، وخصص كل جيب لاحتواء شىء من ادوات القتال ، كما أمضى ساعات طوال فى مناقشة بعض انواع الاسلحة » ايهم اصلح للضرب من قريب ، أى الاسلحة اصلح للقصف من بعيد » وناقش بعض المتخصصين فى الكلية الفنية العسكرية وأشار بيده الى أجزاء بعض الاسلحة » وتساءل :

لماذا لا يبدل موضع هذه القطعة بتلك ؟ كما درس اجزاء الهليو كبر واقتراح
اضافة بعض التعديلات الممكن ادخالها على اجسام الطائرات في ورش
سلاح الجو ، أثناء ذلك مضى الى سيناء متسللا للمرة الثانية ، وقام مع
علاء ومصطفى وابو الفضل وضابط برتبة رائد انضم اليهم اسمه عصام
الدالى ، فجروا مخازن الذخيرة التى تركتها القوات المصرية « وبدأ
الانفجار فى البداية كقنبلة ذرية صغيرة ، وشوهد اللهب من مسافات
بعيدة ، واستمرت الانفجارات ساعات طويلا « فى نفس الوقت اجرى
اتصالات لضم بعض المقاتلين اليه ، وكان علامصديقا لضابط فى البحرية
برتبة مقدم ، اتصل به ، وسعى اليه ، ورشح الضابط شابا ذكيا شجاعا
تخصص فى عمليات الاستطلاع البحرى اسمه وسام عباس ، ومساعد
اسمه ابو الحسن ، وصفه بانه وحش حقيقى ، قوى ، من الناس
المكافحين ، الذين بنوا أنفسهم بسواعدهم تحدث عنه ، وأفاض فى
الحديث ، فقال انه كان غطاسا بشاطيء كيلو باترا ، وكان يراقب البحر
حتى لا يبتلع احد المصطافين « لم يرض عن عمله ، اقترح عليه البعض ان
يتطوع « فتطوع ، حدث هذا منذ عشر سنوات « وخلال هذه السنوات
حصل ابو الحسن على فرقة غطس ، وفرقة ضفادع بشرية « وبجهد
استطاع أن يفوز ببطولة القوات المسلحة للياقة البدنية منذ عامين « وتزوج
وانجب طفلة منذ عام واحد .

جاء هؤلاء ، وجاء آخرون ، وشد الرفاعى على يد وسام ، وقال له ان العمل سيتم فى البحر . وانه يريد رقيقا على البر وعلى البحر ، وراصدا لسرعة الامواج فى القناة . وخليج السويس . وعالما بالمد والجزر . ومواقع سفن العدو . وتصميمات مرافئه ، وما يضيفه الى مراسيه من تحصينات . ومواعيد تفجير الألغام الليلية المضادة للضفادع البشرية ، كما طلب منه ان يعلم من لا يعلم حركة الموج . وكيف يعرف الانسان حركة الرياح . ومواقع النجوم فى السماء . قال انهم لن يصلوا الى العدو عبر فراغ انما سيصارعون امواجا كالجبال وسيحاربون الرياح ، ويجب الا تضللهم النجوم ، وان يتأخوا مع البرد والحر والجوع ، وان يأمنوا المفاجأة . وان يصفوا الى همس العدو .

فبتلك الايام نشط الرفاعى ، وقال ابو الحسن يوما لنفسه . أنه يبدو كإنسان قصير العمر يريد أن ينجز العظيم من الأمور قبل رحيله . وقال عصام لنفسه إنه إنسان لا يهدأ ، ولا يمكن رؤيته نائما . فى تلك الأيام ضاق صدره لأن الليل لا يتسع ، ولان النهار لا يؤجل رحيله ، وبدا له ان الانسان مهما فعل فلن يوقف أو يبطىء من زحف الساعات وتوالى الدقائق ، ادرك انه محصور فى مساحة زمنية يجب ان ينجز فيها كل ما قرر ، كان يريد أن يفعل كل شيء فى أقصر زمن ، يريد أن يقرأ تقارير الاستطلاع . ثم يستطلع بنفسه ان يشرف على التدريب ، ويتابع

الرجال ، يتنقل ، يهاجم ، يعود كثيرا ما سأل نفسه قبل النوم ، هل يكفى العمر لما أريد ؟ كثيرا ما فوجئ بنفسه حائرا لا يدري بأى شىء يبدأ ، كمن تزامت عليه الافكار فجأة فى لحظة يود لو تمهلت الايام ، فى لحظة أخرى تمنى لو اسرع ايقاع الزمن ، فى لحظة اخرى تساءل لماذا لا يصبح للزمن ايقاع متغير فيسرع ويبطئ ، صحب الرجال الى صحراء دهشور ، والى اماكن لم تطرق من قبل فى الصحراء الشرقية ، والى جبال البحر الاحمر ، الى جبل الجلالة ، الى الصحراء الغربية ، اشرف على بناء دشمة تشبه تلك الدشمة التى اقامها العدو فى منطقة الشط واطلق عليها التبة المسحوورة ، تم بناء الدشمة على حافة ترعة تشبه القناة بالقرب من القناطر الخيرية ، اكد وسام ان سرعة المياه فيها تشبه الى حد كبير سرعة المياه ليلا فى القناة ، طار معهم فى الأليوشن ونزلوا من السماء الى الأرض نارا ، وقفزوا من الانتينوف فى منتصف الليل ، غطسوا الى أعماق البحر الأحمر ، وسددوا بنادق الحراب تحت الماء فى جوف البحر الأحمر ، لفت كل منهم تلك الوحدة الباردة التى تطبق على الانسان داخل الاعماق الباردة البعيدة عندما يصبح عالما مستقلا بذاته ، عليه تحديد الاتجاه ، واتخاذ القرار ، والانتباه الى العمق الذى لا عمق بعده ، وعندما امكن للرجال ان يقفزوا من الهليو كبترات بدون ان تلامس العجلات سطح الارض ابدى ارتياحا ، وعندما عاد مع وسام الى بور سعيد بعد استطلاع موقع رمانة

وقف يتأمل النواريس البيضاء بعد ان قال له وسام ان النوارس تواجه مهب الرياح وتمكن معرفة مصدر هبوطها من الجهة التي لولى النوارس منقاره اليها ، اضمر اعجابا بالنوارس لطول ما تقطعه من مسافات ، امكانيات لا حدود لها تضمها أجسام نحيلة . . وفى يوم آخر طلب من وسام ان يجمع له معلومات عن السفينة بيت شيفع ، ولم يسأل وسام عما لم يحط به علما ، لماذا بيت شيفع بالذات ؟ على فترات زمنية متباعدة صار الرفاعى يسأل « ما أخبار بيت شيفع الآن ؟ اين هى ؟ اين ترسو ؟ بعد حوالى سنة اتم خطة محكمة لاغراقها بواسطة اعتراض طريقها بلغم بحرى ثقیل عند نقطة معينة من الخليج اعتادت بيت شيفع التمهّل عندها اثناء رحلاتها المنتظمة من ايلات الى سدر ، غير ان ذلك لم يتم لأسباب ما ، بعد أن تابع حركة الدوريات وتوقيت مرورها بعدة نقاط على الطريق الموازى للقناة ، قرر الهجوم على دورية اسرائيلية تتحرك بين نقطة لسان التمساح القوية ونقطة رقم ٦ ، حدد الهدف « احضار اسير حى ، فى الساعة السادسة صباحا وعشر دقائق فتحت نيران المدافع الاوتوماتيكية اسرع علاء والجرجاوى الى داخل العربة ، فى تلك اللحظة قفز جندى « عدو » ضخم الجثة ، بندقية لم تفارق كتفه ، لم يفكر فى اشهارها ، فى وثبات سريعة لحقه الرفاعى « لف شعر رأسه الطويل حول يده ، بحبل قصير أوثق يديه خلف ظهره ، اختلطت ملامح الجندى العدو « تكسرت كلمات عربية بين شفثيه »

لمجنتها شامية » « لا تذبحنى بخنجر . . اضربنى بالرصاص » ، كان صوته أجوف » باردا ، دفعه الرفاعى باتجاه القناة ، بدأت الدانات الاسرائيلية تنفجر حولهم ، استمر تقدمهم باتجاه المنطقة التى ستأتى إليها القوارب عند ضفة القناة المرتفعة وقف الرفاعى الى جواره مصطفى يبحثن عن القارب ، استمر اقتراب علاء والرجال منها » عندما تأكد الجندى العدو من انها لن يقتلاه » بدا مرعوبا من دانات المدفعية الاسرائيلية التى راح بعضها يتساقط فى عرض القناة ، تسائل . متى تعبرون إلى الضفة الغربية ؟ متى تعودون ؟ كان يتعجل العبور معهم التماسا للأمان » بدا أكثر منهم الحاحا ، عندما رآه الجنود فى المواقع المواجهة ، تساءل أحدهم ، كيف احتمال القارب هذا الثقل كله ، اندفع جاويز باتجاهه رافعا قبضته » زعق الرفاعى آمرا بالعودة ، تعلق عينا الجندى العدو بالرفاعى ، بعد لحظات همس ضابط الموقع » أعذرهم يا أفندم .

حدث مساء اليوم التالى ان جاء جندى اسمه زيتون الى مقر قيادة المجموعة يطلب لقاء الرفاعى ، دخل المقر مبتسما بهدوء » وكان كم سترته الايسر الخاوى قد أدخل فى جيب بنطلونه ، قال هل نسيته يا أفندم ؟ فقال » وهل ينسى الرفاعى من عمل معه ؟ بسرعة أدرك الرفاعى لماذا جاء زيتون ؟ سأل عن أحواله قال زيتون انه يذكر تلك الايام فى العريش ويحن

اليها ؟ ولكنه يضيق الآن لأنهم في الوحدة يعاملونه كشئ زائد عن الحاجة . قال الرفاعى لنفسه ، ان زيتون يمكن الاعتماد عليه . لماذا لم يفكر فيه ؟ لام نفسه لأنه لم يستدع زيتون برغم انه سمع كثيرا في مدرسة الصاعقة عن قدرته على استخدام الخنجر بيده الوحيدة . لن يجعله يصل الى اللحظة التى يعرض فيها نفسه . قال بسرعة ،

لماذا لا نحيى معنا ؟

تابع بسرعة ..

إننا فى حاجة إليك هنا .. يجب ان نحيى لتقاتل ..

لأول مرة مخلووجه زيتون من الابتسامة ، ما فوجئ به لم يدع الفرصة لأى انفعال آخر بالنفاذ الى ملاحه . قام ، ضرب الأرض بقدمه . رفع يده السليمة بتحية عسكرية ، لم يستدع علاء فى هذه اللحظة خشية أى تعليق لا يستطيع ان يمنع نفسه عن ابدائه ، كتب بنفسه خطاب الانتداب . بعد ثلاثة أيام جاء زيتون . فى اليوم الأول استدعاه الرفاعى . قال ضاحكا ..

« إن مجيئك فال خير علينا .. سنقوم الليلة بعملية سيتحدث عنها الكثيرون فيما بعد .. ستطلع معنا .. » اما أمر هذه العملية فيرجع الى عدة أيام عندما جاءت عدة تقارير مختلفة من الجبهة تشير الى ظهور انواع جديدة من الصواريخ لدى العدو ، وان هذه الانواع تشير تساؤلات

عديدة ، خاصة انها منصوبة في الخلاء بعيدا عن مواقع العدو الثابتة ،
ودشمة . رفع يديه الصور الملتقطة ويدت العالم باهته . هنا قال
الرفاعي . .

« اقترح ان نعبر وان ندرس هذه الصواريخ عن قرب » . . غير ان
الرفاعي اضمح في نفسه أمرا ، لم يكشف عنه ، ولم يبح به لأقرب الناس
اليه ، فقد يبدو الهدف خياليا ، من الصعب تحقيقه . لكن أحوال الناس
في حاجة الى أعمال فيها وهج لخيال وجرة التخطيط . والقدرة على
التنفيذ ، عندما تسرى اخبار عملية كهذه سيفكر هذا الجندي الواقف في
قلب الوحشة الجبلية برأس غارب ، قام رجالنا بكذا وكذا ، جرعات من
الثقة في شرايين الرجال الذين يسمعون السباب ولا يردون ، ويرون
العناق والقبل كل يوم سبت ، وعندما جزى صعيدى على شفثته حتى
ادمها ولم يعد لديه ما يميز عليه سدد الرصاص ، وضع حدا للنشوة
المقصودة ، حوكم ، وراح الاعتذار تلو الاعتذار عن طريق هيئة الرقابة .
وجاءت التعليمات بضرورة ضبط النفس ، المسموح به الآن هذه الأعمال
التي تتم سرا ، والتي تذكرها الصحف منسوبة الى منظمة سيناء العربية .

ولما جاء الليل ، وبالقرب من مياه القناة شرح الرفاعي لعلاء وعصام
وأبو الفضل ومصطفى وزيتون ما جال بخاطره . أبدى علاء حماسا . قال

الرفاعى انهم لن يصحبوا أى اسلحة نارية ، كل ما سيأخذونه معهم
خناجر ومقصات كبيرة حادة . الصمت هو ضمان نجاح هذه العملية .
ارتدوا ثياب الضفادع ، فى آخر موقع مطل على الماء . اندفع ضابط
شاب ، عائق الرفاعى . عائق علاء ، قال ، ربنا معكم ، غابوا فى الظلام
بعد لحظات ، رائحة الرمال القريبة من المياه تختلف عن رائحة الرمال فى
الاماكن الخلفية من الشاطئ . تختلف عن رمال الصحراء ، الاندفاع فى
الماء موقوت بالثانية . كما ان الأحساس بالزمن فى البحر يختلف عنه فى
البر ، حقول اللغام مرصودة لكن المفاجأة قد تحدث فى أى لحظة . الخطى
تهتدى بالنجوم البعيدة الحذر حاد ، لا يحملون أى أسلحة نارية ، الرفاعى
يتقدم المجموعة ، كل حواسه موجهة للرصد والانذار ، توقف ، أصوات
قريبة تتضح ، حديث متبادل بالعبرية ، صمت ، ضحكة ، عبارة
تلفظ . صمت . صمت . صمت ثم شخير ، فوق الارض المستوية بدت
الصواريخ ، تدفق الرفاعى منسابا فوق الرمال ، لم يتوقف الا عند السلك
الممتد الذى يصل الصاروخ بقاعدة الاطلاق ، فتح المقص . اطبق على
السلك ، تقدم وسام . لم يلق عناء كبيرا فى تحريك الصاروخ ثم حمله ،
ارتفاعه كطفل فى التاسعة .

فى مقر الوحدة المرابطة على الضفة الغربية حملق الضابط الى الصواريخ
الثلاثة ، جلس ابو الفضل وزيتون فوق صندوق ذخيرة فارغ . رشفوا

الشاي ، الح الضابط الشاب في تقديم عشاء ، لكن الرفاعي قال انهم ينتظرون هذه الصواريخ في القاهرة ، خرج من الملجأ الذي اطلق عليه الجنود اسم « الفيللا » في الشرق كانوا معزولين ، يحيطهم عدو ، وصلوا الى الضفة الغربية بدوا كأنهم يدخلون تحت غطاء في ليلة باردة ، تذكر حكاية قرأها عن القبائل الضاربة في الصحراء بحثا عن الماء ، يتقدمها دليل يمتطي جملا ، عند عثوره على البئر أو النبع يصيح مناديا أهله ، يجب أن يكون حاد البصر ، فذ الملاحظة ، حتى لا يخيل إليه ما هو غير موجود ، عندئذ يهلك القوم ..

في الساعات الاولى من الصباح قال الضابط كبير الرتبة .. هذا أمر لا يصدق .. ليت كل القوات المسلحة تعرف ما قمتم به ..

في نفس اللحظة اكد جندي استطلاع لزميله ..

عبروا من هنا .. ورأيتهم بالصواريخ عند العودة ..

بعد يومين سأل الرفاعي وسام ..

لم يذكروا شيئا بالطبع ..

ضحك وسام ..

ماذا سيقولون .. في مثل هذه الأمور تخرس انفاسهم .

قال الرفاعي ..

ونحن من ناحيتنا لا حس ولا خبر .. ولا من شاف ولا من درى ..
قال علاء ..

لو اغرنا على الموقع لحدثنا خسائر لا بأس بها .. سمعت شخير
النائم بأذنى ..

قال وسام مخاطبا علاء ..
يا سلام يا أفندم لو شفت المنظر فى المنطقة صباح اليوم التالى ..
عربات تروح وعربات تيجى .. وضباط من سلاح المهندسين ،
يفحصون ، ويتناقشون ، ثم يقفون كعلامات الاستفهام ..

قال علاء مشيرا إلى الخريطة ..
يجب أن يغوصوا حتى الركب فى الدم ..

وحدث فى الايام التالية أن أجرى الرفاعى عدة اتصالات وقرأ عددا من
التقارير ، وازاف العديد من الملاحظات الى سبعين ملفا فى الخزانة
السرية ، ضم كل ملف تخطيطا أوليا لعمليات مقترحة ضد هدف معين «
وكافة المعلومات المتاحة عن ذلك الهدف ، كما يضم تقارير عن المعدات
المتوفرة ، وأخرى مطلوبة ، وكفاءة السلاح والتعديلات المقترحة «
وكفاءة العربات والمعدات ، أما كفاءة الرجال فهذا ما لم يخطه فى ورق «

احتفظ بذلك لنفسه ، موضع كل منهم في خطط الهجوم لم يتحدد تلقائيا ،
انما برز عبر قطارات متوالية من الليالى « فى الصحراء » فى الدوريات ،
حول موائد الطعام ، فى مداهمات المرض ، فى تلك الفترة اصبح عليهما
بنوعية الآهة التى تصدر عن كل منهم أثناء نومه ، اصبح يدرك ايقاع
الخطى فى جوف الظلام ، ما يفصل الخطوة عن الخطوة ، اتساع الحدقة
اتجاه النظرة ، يعرف من يرهف السمع ، من يندفع قبل الاوان من يخترق
التوقيت الفريد ، عند الهجوم على نقطة البلاح شرق ، دمدم رشاش
نصف بوصة بسرعة ، شطح ونطح فى الافراد « اخفى بمهارة كاللحظة
التي ينتهى فيها العمر ، والارض التى سيموت فوقها الانسان ولا يدري
اين هى ؟ ارتفعت ذراع علاء ، بدت قامته مكشوفة « ارغى عليه ،
انبطحا ، صوب القبلة باتجاه المزغل الضيق فى مقدمة الدشمة كعين
وحيدة فى وجه آدمى ، لكل مقاتل مهمة ، ولكل تغير طارئ « موقف
يناسبه وانسان يواجهه .

عندما خرج الجميع تقريبا إلى اجازة بعد العودة من طابور سير فى وادى
قنا المزحوم بالعقارب والشعابين لم يتبق إلا وسام كضابط نوبتى ،
والجرجاوى المبتسم دائما « غير انه لمح ابو الفضل يعبر أرض الطابور متجها
الى عنبر النوم « بدا وحيدا ، سأل وسام عنه ، قال وسام ان ابو الفضل لن
يخرج هذا اليوم « رفع التليفون « جاء ضوت نادية هادئا ، اعتذر عن

عودته ، قال انه سيتأخر قليلا ، قالت انها ستنتظره ، سأل « هل ليلى مستيقظة ؟ قالت انها نائمة » قال وسامح ؟ قالت انه يلعب الكرة مع ابناء الجيران امام الشقة ، كان صوتها مستويا كطريق مستقيم مؤد الى هدف واضح « ذات يوم قالت انها تعلمت معه الانتظار » بعد عودته من اليمن رأى علبة سجائر فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للسريـر ، فوق العلبة ولاعة مستطيلة الحجم « أمسكها ضاحكا ، قال انه لا يدخن فكيف سيدعوها الى التدخين ؟ انه لا يجيد امساك العلبة ثم طرق عليها بأصبعه حتى تطل منها مقدمة سيجارة » ابتسمت قائلة إن الانتظار مر ، وأن سمير وسامى كانا لا يمان عليها اياما فتقضى الوقت الى جوار ليل « ترقبها فى نومها ، وتداعبها فى صحوها ، وأحيانا قلدير مؤثر الراديو » وعندما تكف أصوات العالم بعد منتصف الليل بمسافة يلفها ضيق ، طلبت من سمير الرفاعى ان يأتى لها بعلبة سجائر ، سألها ، أى الانواع تفضلين ، قالت انها لا تدرى ، نزل وعاد بهذا النوع الذى يحوى مذاقه همسة نعناع ، اهداها ولاعة ، قالت ضاحكة ، لكننى غير مدمنة ..

وضع السماعة ، يتخيل ملامحها الهادئة ثم جلوسها بركن الصالة واستئناف عملها فى البلوفر الأخضر ، يذكر انه حدثها عن أبو الفضل ، كان فى زيارة لكتيبة صاعقة يقودها عادل زميله « قدمه عادل قائلا انه وحش حقيقى » بعد خروجه قال عادل انه مقطوع من شجرة « أجازته

يقضيها في القشلاق وقلبه ميت « الرفاعي لا يعجبه هذا التعبير « الموصون
بموت القلب من أكثر خفقا للحياة سعى الى انضمام ابو الفضل اليه « قبل
مجيئه قرأ ملفه « أبو الفضل على سلامة « من مواليد الطلحيات ، مركز
طهطا ، التاسع من ابريل عام الف وتسعمائة وأربعة وأربعين « تاريخ
التطوع « الف وتسعمائة وثلاثة وستين ، أى عندما اتم السن القانونية
للتطوع ، الرغبة عند التطوع . الصاعقة . سأل الرفاعي . .

« منذ متى لم ترعم حسين ؟ »

« أكثر من سنة . . »

ابدى الرفاعي دهشة ، قال . .

اليس هذا تقصيرا منك ؟

لم يجب ، قال الرفاعي . .

كم يوما تكفيك لتذهب وتعود من دير مواس وتقضى هناك يومين . .
أسبوعا مثلا ؟

أوما أبو الفضل برأسه . قال الرفاعي . .

اعتبر نفسك في اجازة من الليلة . . هناك قطار يقوم في العاشرة . .

مد يده الى درج المكتب ، سحب عددا من الاوراق المالية .

خذ معك « زيارة » جيدة . . وعندما تعود بالفطير احتفظ لى
بنصيبى . .

بدا أبو الفضل خجلا ، قال . . لكن يا أفندم . أشار الرفاعى بيد ممتدة
حاسما المناقشة . .

الى اول قطار بلا مناقشة . .

عندما التقى الرفاعى به لأول مرة منذ سنوات طلب منه ان يحدثه عن
بلدته ، قال الرفاعى انه رأى طهطا لكنه لم ير الطليحات ، عاش فى كثير
من محافظات الوجه القبلى وذلك لعمل والده مفتشا بوزارة الداخلية وتنقله
فى بلاد مختلفة ، ثم خدمته بوحداث من الجيش تنقلت كثيرا فى انحاء
مصر ، ولقيامه بالعديد من دوريات الاستطلاع ، عندما احس الرفاعى
ان الجمود يذوب بين الضابط والجندي سألته عن آخر مرة رأى فيها
الطليحات ؟ قال أبو الفضل ان ذلك جرى منذ سنوات عديدة ، اكثر من
خمسة عشر عاما ، قال أبو الفضل انه لم يره ابوه ، غادر الدنيا وله من العمر
اسبوع ، لهذا لا يعرف أى شىء عن ملاحه ، فالناس وقتئذ لم يعتادوا
التصوير ، أما أمه فاحتوته حتى التاسعة ، يذكرها وكأنها تقف أمامه الآن ،
لم تنجب غيره ، رفضت كل من تقدم اليها ، شنع عليها الناس وافتروا
خاصة اعمامه ، كانت تقول له دائما احذر اعمامك ، فى تلك السنوات

سمع انهم ينون قتله حدث ذلك بسبب فدان ونصف من الطين وبعض
نخلات ، بعد رحيل امه خلت الدنيا « عند عودته من المدفن تحت الجبل
ادرک انه بلا صاحب أو سند « وعندما جلس تحت سقف الخوص بكى لأن
أمه جدلته بيديها ورتقت ثقبوا تخللته بين حين وحين « صباح يوم ثلاثاء قال
له عمه الكبير ، تعال نذهب الى طهطالنتهى بعض اجراءات الميراث «
أمسك به من يده اليسرى ، مشيا على الطريق المؤدى للنهر ، غير انهم لم
يمضوا مباشرة الى مرسى القوارب ، عندما ضغطت قبضة عمه على راسه
لغ في قلبه خوف خطر له ان يحاول الافلات ، لكن كيف ، إلى أين ؟ عند
منحنى الطريق ظهر فجأة جاويش النقطة ، كان قادما من الجهة المقابلة
ممسكا بعضا قصيرة ، تبادل التحية مع عمه ، بعد خطوة التفت الى
الخلف ، صرخ . عم . الحقنى يا عم . . تساءل الجاويش ، الى اين ؟
قال العم انها ذاهبان الى أحد الاقارب ، هنا عض ابو الفضل يده
وتوارى خلف الجاويش صائحا ، انه ينوى رميه في النهر ، أبدى الجاويش
حسين شكا ، سحب أبو الفضل الى النقطة ، تحدثت البلدة فيما جرى
وقال الناس ان الجاويش ظهر في اللحظة المناسبة وان عمرا جديدا كتب
لابو الفضل ، ولكن الجاويش لا يستطيع حمايته حتى النهاية ، حار فيما
يفعل ، ابقاه في النقطة يومين ، في الفجر صحبه حتى القرية التالية ،
أعطاه عشرة جنيها ، وضعهم في منديل ثم ربطه حول ذراعه ، حذره

من اولاد الحرام ، قال انه لم ينجب ابدا لكنه يعتبر أبو الفضل ابنه ، ليرسل اليه بأخباره بين الحين والآخر » منذ ذلك اليوم تلقفته الدنيا ، تقلب في مهن عديدة ، لم يعد الى البلدة ، لم يسأل عنه أحد ولم يسأل عن أحد ، قال ان عائلته في الدنيا هذا الجاويش الذى احيل الى المعاش منذ سنوات » استقر ببلدته دير مواس يزرع مساحة قليلة من الارض ، يزوره على فترات متباعدة كلما سمحت الفرصة . .

بعد أن اصغى الرفاعى إليه في تلك الليلة شعر انه ينضم اليه من جديد ، بدأ يعتبره من الرجال الذين سيظلون على مقربة منه لحظة الاقتحام ، تماما كمصطفى الذى تشابكت سنيته مع سنين الرفاعى ، في اليوم التالى اتصل بالعقيد علاء ، جاء صوته صاخبا ، حادا ، قال انه يدعوه للذهاب الى الحسين ، يصليان الجمعة معا ، ثم يجلسان لتناول الشاي » بعد الصلاة يتقدمان الى الضريح ، يعبران رقائق الضوء ، يطوفان على مهل بمشوى الشهيد ، يبدو الضجيج والهمل نائما ، عندما يجيء الى المشوى فانه يزور محاربا قديما ، عرف النهاية فى الطريق ولم يتراجع خطوة واحدة فى طريق العودة والأمان » فى الليل يطلب من صاحبه ان ينصرفوا عنه فالقصد هو ، والهدف هو ، لكنهم يبقون ، يزودون عنه » سبعون واجهوا أربعة آلاف ، يقاتل حتى يقتل » يمضى بصاحبه علاء الى مقهى يطل على الميدان » يتابعان حركة المارة ، لا تسترخى ملامح علاء ابدا ،

يرى فى اصغر المواقف التى تمر بالانسان عناصر معركة ، عندما يشتري الانسان شيئا الا يدور صراع بين البائع والمشتري ، عندما يجب الانسان امرأة « الا يندفع ، ويهجم » ويتاور ، ويغضب ، ويرضى ، يقول دائما ان الحياة قتال مستمر ضد آلاف الاشياء ، فى هذا الهواء اخطار لو عاها البشر لسقطوا هلعا .

قال الرفاعى انه من الضرورى الا تأخذهم دوامة التدرجات والعمليات . نظر علاء صامتا وفى عينيه استفهام ؟ قال الرفاعى ان من يواجهون الموت معا يجب ان يعيشوا حياتهم معا ، أوما علاء ، قال الرفاعى انه يجب خروج المجموعة فى رحلات ، الاحتفال بأعياد الميلاد . أمور كهذه . . قال علاء ان هذا شيئا فشيئا بشكل تلقائى ، صمت لحظة ثم قال ، هل تعرف ان هناك زواجا سيتم فى المجموعة ، بدت دهشة فى عيني الرفاعى ، قال علاء ان الجرجاوى سيخطب اخت سعيد ، الجرجاوى من قنا ، وسعيد يعمل بمصانع اسكو ، عبر الاحاديث المتبادلة والمناجاة الليلية التى تسبق النوم « عرف الجرجاوى ان لسعيد شقيقة ، قرأ الفاتحة وستتم الخطوبة قريبا ، قال الرفاعى انه لم يعرف ولم يقل له أحد « بد سعيد بالخبر ، قال علاء ضاحكا ، وهل تريد ان تعرف كل شيء ، المجموعة حياة متكاملة الآن ولا يمكن الاحاطة بكل ما فى الحياة . . اليس كذلك ؟

قاما ، اقترح الرفاعى ان يذهبا الى والد الشهيد عبد الكريم ، اول شهداء المجموعة فوق الضفة الشرقية بمنطقة جبل مريم امام الاسماعيليه ، تحت مسجد قديم على ناصية حارة الميضة فى الجمالية دكان خردوات خرج منه عم مراد العجوز . قال انه عندما رآهما فكأنه رأى سعيدا . صاح مناديا احد الصبية ليحضر الشاى ، قال علاء انها قادمين من المقهى . . لكن الرفاعى ابدى رغبة فى شرب الشاى مع عم مراد سأل عن أى حاجة لعم مراد يرغب فى انجازها . بعد تردد قال انه لا يستطيع مفارقة الدكان ، كما لا يعرف الطريق الى الادارة المختصة بتجديد البطاقة العلاجية التى تذهب بها والدة عبد الكريم الى مستشفى غمره العسكرى . . قاطعه الرفاعى . هل البطاقة معك ؟ بحث فى أدراج المنضدة الخشبية القديمة اخرجها ملفوفة فى كيس من النايلون . قال الرفاعى . . اذا لم احضرها انا اليك سيأتى بها عبد المؤمن بعد غد ، ابتسم الرجل عند انصرافهما ، قال . . لا تنسوا عمكم مراد يا أولاد . .

تساءل علاء . . الى أين ؟ قال الرفاعى . الى المجموعة . فى المقر قابلهما المقدم توفيق :

« أريد أنلقى نظرة على صور الاستطلاع الجوى الأخير . . »

دار توفيق بقامته الفارحة . الضخمة حول المنضدة . انه قليل الكلمات لكن اذا نطق فكأن سرية بأكملها تصيح ، لهذا يرجو الا يخاطبه

أحد أثناء التسلسل على الضفة الأخرى . لكن في لحظات الهجوم يطلق صياحا أقسم علاء انه يشل العدو . من هنا يسهل عليه استعمال خنجره معهم . وقيل ان سمعته بدأت تنتشر في مواقع العدو الأمامية ، المصرى ضخّم الحجم ، انه رام ممتاز ورصاصته لا تخفى هدفها أبدا ، طلقته والقبر ، عندما بدأ قصف المدفعية المنتظم كمن في مواجهة موقع رقم « ٦ » . رصد جندي العدو ذا اللحية الذي لم يكف عن الصياح والصغير والسباب لمدة شهر من فوق برج الملاحظة . عندما غائب جندي العدو . قال توفيق لنفسه . هذه آخر مرة لك . وعندما انكأ على الحاجز الخشبي للبرج . لم يتبق الا دقيقتين على بداية القصف ، استقرت الدائرة الحمراء على منتصف الجبهة . ضغط الزناد ، تردد الصدى ، لم يفارق مكانه ، تسلق جنديان السلم الخشبي المؤدى الى البرج . وزعق جندي « عدو » مخاطبا شخصا ما عبر التليفون ، ثم ساد صمت لا تعرفه الا الاماكن الحدودية ، اصغى توفيق الى احتكاك الموجة بالموجة . انتابته راحة ، اصر على ان يسقط هذا العدو طويل اللسان ، دوت ثلاثة انفجارات متتالية كأنها طرقات القدر .

قال الرفاعي ان الصور رائعة ، العمل جيد ورائع لا بد ان الطيار عرض نفسه لمخاطر عديدة وقام بمناورات حادة حتى امكنه التقاط هذه الصور ، قواعد الهوك واضحة والطريق الرئيسى ، ومدخل الموقع الامامى .

والمخرج الجانبى ، قال لعلاء انه يجب كتابة خطاب شكر الى قائد الاستطلاع الجوى ، انه لم يعرف هذا الطيار ، وربما لن يراه ، لكن هذا الشاب عرض نفسه للخطر ، انه يتأثر لتلك العلاقات التى تجسد المشاركة ، تهزه هذه العلاقات الخفية بمن لا يعرفهم ، يتأمل الناس فى الزحام ، يود لو مشى بينهم على مهل ، يتحدث الى هذا ، ويرد على ذاك « لكنه دائما يعبر الطريق إما متجها لانجاز مهمة أو عائدا من مهمة وتبقى الرغبة مؤجلة . .

بعد ثمانية ايام انطلقت المجموعة باكملها فى الفجر والهدف هذه المنشأة التى حام فوقها الطيار الشجاع والتقط لها تلك الصور ، حدد موعد الهجوم فى الثامنة والنصف صباحا ، هجوم لن يسبقه تمهيد نيران « الهدف سبق ان هوجم منذ اربعة أسابيع ، عند نهاية الطريق الصحراوى بدت الاشجار غارقة فى ضباب صباحى مبكر كاللبن ، عند كوبرى نفيشه قال ضابط المخابرات الحربية الذى وقف ينتظرهم ان التقارير الواردة من النقاط الامامية تشير الى حركة غير عادية « كما صممت الاتصالات اللاسلكية « هناك احتمال بان العدو اكتشف المجموعة عند اقترابها من الاسماعيلية .

فى مواجهة الصباح الباكر وقف ، يدها تلامسان خصره « انه اشبه بمن يعدو مسافة طويلة ثم يطلب منه التوقف فجأة وخط النية على بعد متر

واحد « هل يعود الرفاعى والمجموعة بأكملها لأن العدو اكتشفهم ؟ تسائل
علاء .. ماذا يعنى هذا .. هل نرجع ؟ نظر اليه « قال .. ومتى اتجهنا الى
العدو وعدنا من منتصف الطريق ؟ اجزى فى ذهنه تعديلا طفيفا ، سيتم
انزال القوارب من نقطة تقع الى شمال الموقع بحوالى مائتى متر « ثم
يقترّبون بمحاذاة الساتر الرملى « سيتحركون تحت العدو مباشرة « حيث
الرؤية بالنسبة له ميتة « من ناحية أخرى يتمركز توفيق مع أربعة جنود من
المجموعة فى أماكن متفرقة كقناصة « ان القصف المدفعى يعنى الآن تأكيد
العدو من بدء عملية عبور « القنص نشاط لا يشرىرية ، ويث رعبا خاصة
فى نقاط الملاحظة ..

قال ضابط المدفعية الشاب ..

هناك طائرة مروحية تطير على عمق كيلو متر واحد من الحد الأمامى
للعدو ..

فى البيروسكوب الأرضى رأى الرفاعى الطائرة ، بدت كذبابة معلقة
فى الفراغ « فوق الضفة الشرقية قرب المسافة جرار اصفر اللون ذا عجلات
كاوتشوك ضخمة ، كان الهدوء ثقيلًا كأن الحرب نائمة ، وبعد لحظات
سيوقفونها ، اما ابراج الملاحظة فبدت كعلامات استفهام فى مواجهة النهار
المقبل .. وتسائل الرفاعى عن الحركة منذ أول ضوء ، قال ضابط المدفعية

ان قائد السرية خرج فى السادسة والنصف وعاد منذ ربع ساعة ، وهو يتناول افطاره الآن ، الجنود فى الموقع جدد ، جاءوا منذ ثلاثة ايام ولذلك فهم اكثر حذرا ، يتحركون بحساب ، ومعهم جندى اسود ..

فى التليفون ضحك قائد سرية الدفاع الجوى الملحقه بالكتيبة ..
طبعاً ، يمكن تطفيش هذه الدبابه الآن ..

سأل الرفاعى ..

هل اعتدتم اطلاق النار على هذه الطائرات ..
جاء الصوب عبر التليفون الميدانى ..

ليست أول طائرة يتم تطفيشها .. وليست أول طائرة يتم اسقاطها ..

قال علاء ..

سيضربها الآن ؟

أوماً الرفاعى ثم امتد صمت مصحوب بترقب ، دوت طلقات سريعة منفجرة فى الفراغ ، المدفعية المضادة ، قال علاء وهو يحرك البيروسكوب ..

ابن الكلب جرى .. هرب ..

تم الاستطلاع النهائى ، بدأ التلقين الأخير ، جميع أفراد المجموعة يخرجون معا ، زيتون يتمنطق بخنجرين حادين ، عمر الطباخ مع مجموعة الاقتحام الثالثة ، جاء الى المجموعة كطباخ ، اسمر ، قصير ، كان يعمل بالهيلتون ، عندما تحدث العقيد سمير عنه ، قال انه سيرسل الى المجموعة احسن طباخ فى وحدات الصاعقة ، لزم عمر المطبخ ، عند عودة الرجال يجدون الوجبات الساخنة ، يبدو مستغرقا جدا فى عمله ، غير انه بدأ فجأة يتذمر ، كيف يخرج الجميع ويبقى فى المطبخ ؟ تقدم اكثر من مرة يطلب الاشتراك فى العمليات ، منذ اربعة شهور ابلغ بأنه اتم تدريب عدد من الجنود على الطهى المتقن ، بدأ يشترك فى تدريبات المجموعة ، ارسله الرفاعى مع مصطفى الى الضفة الشرقية ، قضيا ليلا كاملا ونهارا ، انه التدريب فى قلب العدو كما يسميه الرفاعى ، خلاله لا يخوض الجندى قتالا الا اذا أجبرته الظروف ، ولكنه يتعرف الى الارض والمناخ والمشاعر ، بعد عودته قال مصطفى ان قلبه جامد ، وجرىء ، ابو الفضل يختبر مدفعه ، لم تسعفه ذاكرته عندما حاول ان يحدد الزمن الذى تساءل فيه الرفاعى خلال حوار جرى مع احد المجندين الجدد . .

كم مرة يموت الانسان .

قال المجند . .

مرة . .

امتدت ذراع الرفاعى الى الشرق . . قال
اذن . . لتكن هذه المرة .

كلما خرج أبو الفضل الى عملية يقول لنفسه « انها هذه المرة » يوقن انه لن يعود وسيصبح جملة في أخاديتهم ، ما يتمناه ان يذكره الرفاعى « كان مقاتلا لا يعرض » قبل استشهاده احدث خسائر فادحة بالعدو ، لم يذهب هدرا ، لن يعبر الدنيا هكذا ، سيترك أثرا لن ينساه الرجال ، قال العقيد علاء ان الانسان لا يختار الطريقة التى يموت بها ، صحيح ، لكنه سيبدل كل ما لديه حتى لا يروح فى صمت ، وعندما تحين المرة التى لا تكرر لها فيكفيه أنه ذهب بين هؤلاء الذين أحبوه ، كأنه سيولد من جديد « لا يخشى الموت » تعرض له مرات عديدة ، وفى كل موقف كان من المفروض ان يغرب تماما ، كل ما يعيشه وقت زائد ، يقول الرفاعى انهم يريدون ان يشبوا للبلد وللعدو وللعالم أن مصر انجبت رجالا يعرفون كيف يقاتلون ويستشهدون « وهو سيثبت للرفاعى انه من هؤلاء ، لن يتركه ، وهل نسى الرفاعى أحد رجاله يوما ، هل أهمل جريحا ؟ لن يتركه فوق أرض يجوس خلالها غريب ، لن يدع العدو يشق بطنه ليحوله الى لحم متفجر ، انها هذه المرة « فى اللحظات الأخيرة التى تسبق اقتراهم من صفة القناة يسرى مرح رهيف ، مصطفى يمشى على اطراف اصابعه « كثيرا ما قالوا له ، تبدو وكأنك لا ترتدى حذاء ابدا ، كأنك بلا ظل ، ابو

الحسن في مجموعة القيادة يتلفت حوله ، على شفقي عصام نفس الابتسامة الموحية برغبته في الاقتراب من الآخرين منذ لحظات ضحك عندما قال له علاء ان توفيق يكمن صامتا لأنه لو لفظ كلمة واحدة سيرصد العدو مكاننا ، تبدو مياه القناة الزرقاء ، منذ شهور عبروا من نفس المنطقة الى الهدف ، بعد انتهاء العملية تقدم ضابطا شاب برتبة نقيب « عاتق الرفاعي » قدم اليه شريط كاسيت صغير قال انه يهديه الى المجموعة ، على الشريط اصوات استغااثات قائد موقع العدو « وقائد موقع ٦ » يعتذر بأن القوات غير كافية للنجدة ..

تسلقوا الساتر الترابي « مصطفى يحمل محبس الالغام ، انفجار ، انتشرت المجموعات « لم تنطلق رصاصة منهم ، التعليمات صارمة ، لا اطلاق نار الا على هدف حي ومضمون ، توغلت مجموعات الاقتحام « طلقات متتابعة ، رشاشات من طراز جليل نصف بوصة « طلقة دبابة « كأن جاروفا هائلا قلب الرمال ، سقطت دابة الدبابة في قلب مجموعة الهجوم الثالثة ، صاح الرفاعي أمرا .. اسحب الشهداء ..

خطا طيف اعدت للغرس في القوايش والعودة بها إلى الضفة الأخرى .. واصل تقدمه باتجاه الدشمة الرئيسية « الاسلاك الشائكة اغزر « أكشف عما تبدو عليه من الضفة الاخرى ، الرمال مغطاة بشعر

مجدد ، المزاغل المخفأة تطلق النيران بلا انقطاع « من عمق الفراغ النهارى
جاء صوت موتورات ، بدأت الدبابات ارتعى فوق الارض ، زحف فوق
جدار الدشمة شبه المنحنى « اصبح تحت المزلزل الرئيسى الذى يحمى
مدخل الدشمة ، مد يده الى أعلى « أمسك فوهة المدفع ارتكز الى
الأرض « بسرعة نفذت الحرارة عبر قماش القفاز « لامست الحرارة
ملمس يده لكن الرصاصات اصبحت موجهة إلى الفراغ .

.. اقتحام

علاء « ابو الحسن ، مصطفى ، زيتون ، اقتحام ، تدفق الى الممر «
البجاوى ، زحف ، رفع يده ، حل مكان الرفاعى ، أمسك الفوهة ،
تجاوز الرفاعى الرجال ، الممر منحنى الى باطن الارض ، نفق ناعم زلق «
انتهى فجأة ، تتعرج الممرات ، بيوت الارانب ، المكان منبع المفاجأة «
اللمحظات متفية « الاحساس الخفى ينذر ، يتنبه ، التفت الرفاعى «
التقت عيناه بالعينين المتسعيتين ، ثوانى المواجهة المصحوبة بالفعل ، يوشك
الاصبع ان يلامس الزناد ، صرخة ، ثم طعنة تلت قفزة سريعة ، غاص
سن الخنجير فى البطن ، مزع الجلد الى أعلى « طش الدم ، اطلت
المصارين الزرقاء اللون ..

الدبابات تهاجم ..

الافتحام مستمر ، الممرات الملتوية ، أبواب تغلق فجأة ، لهب مارق
عمدى الرصاص ، يتوقف عمر لحظة ، يرصد الرفاعى لحظة التردد .
يزعق ..

ادخل عليهم .. انت جاي تتفرج :

فى اللاسلكى يصيح مصطفى ..
تم سحب الشهداء . عدا شهيد واحد ..
ابحث عنه .. حول ..
علاء يتصدى للدبابات .
علم .. حول ..

دخان ، بارود ، لحظة المواجهة تتكرر ، محاولة تصويب ، ضغطة
الزناد اسرع من الخنجر ، يبدو الاستسلام فى العينين ارتخاء الملامح ،
صرخات ، الفاظ مدغومة ، مدفع عمرو « يزعط » فى الممر الداخلى ،
يلف الرفاعى الشعر الكثيف حول معصم اليد ، فى البداية خط احمر يلتف
حول الرقبة « يتسع ، يتفجر الدم ، فى مطبخ الموقع ثمرات بطاطس فى
اناء الومنيوم ، سكين مغروسة فى ثمرة لم يتم تقشيرها ، طبق فوق
الارض « ملاحه من وعائين « زجاجة مياه معدنية ، المطبخ خال ، يزمه
بالالغام ، بوتاجاز مشتعل ، شلاجة مفتوحة ، تعمل بالكيروسين ،

يختبئون في قلب الموقع ، غرفة الدفن انهيار ، طلقة اربى جى « مكتومة »
التدفق الى القلب عبر الطرقات الملتوية ، حرق الأوراق ، أبو الحسن يجمع
كل ما تلمسه أصابعه ، أربع جثث في الممر الرئيسي ، تبادل اطلاق نار
كثيف ، انهيار الباب الرئيسي « حزمة ضوء تنفذ الى الغرفة من فتحة
مستديرة في السقف » الاردية الزيتوني تلتحم بالكاكي تستنفذ كل
العضلات ، يد الرفاعي المصابة ثقل من رصاص ، الحزاء يستقر في
البطن ، يلامس سن الخنجر عظام صلبة « ثلاثة يتراجعون بعد أن
جردتهم طلقات سريعة من مسدساتهم ، الرعب جعل الملامح متشابهة »
الخوف مادة صيفوا منها . .
« ما تخلّش حد . . »

الضوء والدم ، تكتكات اللاسلكى ، غبار ، اصداء الغرفة الجانبية
مستعصية على الاقتحام « تم تحزيم الموقع كله بالالغام ، أمر
الانسحاب ، الدبابات تتحرك من الخلف ، دمعت عينا الرفاعي عندما
واجه الضوء ، تتقاطع قذائف الدبابات ، حتى الآن لم يظهر الطيران »
علاء يخرج من الموقع المجاور ، يعرج عرجا خفيفا لكنه قادر على السير ،
من الضفة الغربية يهيج الصوت . . ارجع بالأولاد « ، الى القناة ، ركوب
القوارب ، تجول عيناه « يدرك مصطفى ما يبحث عنه « يقول ان الشهداء
تم سحبهم كلهم الى الناحية الاخرى . . انفجارات في العمق . .

« مدفعتنا اشتغلت » زرقة السماء مصهورة ، صرخة من مكان ما « ستار المدفعية الناري ، فوق الرمال ارمى ابو الفضل يتزف بغزاة » تبلل جوربه بالدم ، ركع مصطفى بالقرب منه . . « استند على . . » نظر اليه ابو الفضل بعينين مرهقتين نرف من نظراتهما الى حد الاعياء ، « ابعد . . سيبنى . انا ما عدش فيه فايذة . . » رفع مصطفى ذراع ابو الفضل « صرخ « سيبنى . الحق نفسك انت . . ما تعملش بطل » « صاح الرفاعي « ابو الفضل . » استسلم لمصطفى ، فوق الضفة الغربية طاف الرفاعي ، التمام المعتاد الذي لم يستطع أن يقوم به فوق الضفة الشرقية ، الأحياء « الشهداء بنقص أربعة . قال مصطفى . . « سجبنا جميع الشهداء » هذا يعنى ان هناك اربعة مصائر على . حفة الاخرى ، انه يكره الاضطراب ، قال الرفاعي وهو يتجه الى القناة ، « سأعود الى الرجال . . من سيجيء معى ؟ » عصام ، أبو الحسن ، مصطفى ، علاء ، قال الرفاعي « ابقى هنا يا علاء » ، بدأ عبور القناة في هذه المرة أكثر بطلاء ، وأعمق صمتا « القذائف تصل ما بين الضفتين ، فوق الضفة الغربية أصغى رجال المجموعة ، ورجال الموقع الى صوت معدن نحيل ينفذ من خلال الانفجارات والشظايا ، كان الرفاعي يصيح مناديا على رجاله الأربعة مستخدما ميكروفونا يدويا صغيرا « بعد ساعة عرف الرجال أن دبابة اسرائيلية طاردت الجرجاوى ويوسف وعباس والدمياطى ، اتجهوا الى

داخل سيناء ، زاغوا بين المرتفعات الصغيرة ، في الطريق فوجشوا
بمنخفض ، لم يصدقوا عيونهم . امامهم بطارية صواريخ هوك كاملة .
بدت كما كيت ضخمة غير حقيقى لانها مهجورة تماما ، لم يضيقوا لحظة ،
ارتفعت السنة الذهب الاصفر اللزج من الصواريخ . فجروا عربية
الرادار . ثم كمن مع الرجال بمحاذاة مدق رمل قريب حتى وصل اليهم
نداء الرفاعى .

غير أن إنسانا لم يستطع الاقتراب من الرفاعى في هذا اليوم لما بدا عليه
من صمت غريب ، علاء لم يتحدث اليه . وعصام لم يقترب منه . اما
توفيق فحمل وجهه صدى الصمت وظل الحزن ، خلا الرفاعى الى
نفسه ، بدا له اليوم رماديا مبللا بالدموع ، اتصلت القيادات للتهنئة ، تم
نسف الموقع وتطهيره تماما . لكنه لم يجب على التليفونات ، طافت بذهنه
صور بعيدة . قطرات الندى الفجرية فوق صخور جبال البحر الأحمر خواء
هذه المنطقة ، وما تبعته من احساس بالبعد ، الرغبة في رؤية الاصدقاء
عند نزول بلد غريب . مضى الى المستشفى ليرى جراح الأحباب ،
وليثبت ملامح رفاق السلاح في الدهن المتعب ، ثمانية شهداء ، خلفه
الطبيب يمشى حذرا ، لم يتزع عنهم الا الأحذية ، ضمدت مواضع
الجراح بالشاش والقطن . عمر متمد في هدوء كأنه يهم بابلاغه رسالة
ما ، أول وآخر عملية ، المسيرى سليم تماما ، ملامح وجهه تحفظ ببقايا الم

لحظى صاعق ، نفذت الشظية الى الرقبة ، اخرى الى داخل الرأس عبر جسده رعدة ، تصلبت قامته ، أدى تحية عسكرية لانفرضها مراسيم ولم تحدث عنها تقاليد ، في اليوم التالي طلب من السرساوى الضباط الذى يجيد الرسم ان يخط بحروف بارزة اسماء كل من استشهدوا على لوحة مستطيلة ، وان يرسم لهم لوحات ، عرف الحزن طريقه الى المجموعة « خلت اماكن في عنابر النوم » ودخلت عبارات لم يلفظها أحد من قبل في الحديث اليومي ، كان السرساوى وهو يخط أسماءهم يقول : « الذين سبقونا » قال الرفاعى ان رحيلهم يعلمنا كيف نحقد أكثر على العدو ، في اليوم الثالث لانعام العملية عصف به غضب « ولم يذكر عبد المؤمن انه رآه هكذا من قبل » بدا على أبو الفضل اعياء شديد ، نقص وزنه بشكل ملحوظ ، توقف الرفاعى أمام السرير الحديدى في العنبر الكبير الشبيه بالجراج ملامسا خصره براحتى يديه ، لم يتبادل مع ابو الفضل حديثا منطوقا ، تلاقت عيونهما ، ولمدة سبع ساعات تالية ، لم يكف عن الحركة بين ادارات مختلفة « تحدث الى ضباط برتبة لواء » وناقش ضباطا برتبة عميد « واحتد في أحد المقار ، وشرح ما قام أبو الفضل به عدة مرات ، وانفعل أكثر من مرة حتى تدفق الدم عبر شرايين رقبته الى رأسه ، ولاحظ عبد المؤمن ان أصابع يديه تلدور حول بعضها ، لم ينتظر المصاعد في بعض الابنية وصعد السلام قفزا « ابلى ضيقا عندما تأخر احد الجنود في طبع

خطاب كتب من أجل ابو الفضل ، وفي المساء لم ير أحد الارتياح الذي أسدل على ملاعجه عندما جاءته مكالمة مختصرة انتظرها طوال الفترة الواقعة بين الرابعة والسابعة ، قال لعلاء وعصام وتوفيق ووسام « تعالوا الى مستشفى المعادي » في الطابق الرابع لافتة تطلب عدم الازعاج حرصا على راحة المرضى « على باب الغرفة رقم (١) علقت لافتة تقول ان الزيارة ممنوعة ، قالت المريضة انه نام بعد وصوله ، استيقظ منذ خمس دقائق في انتظار الطبيب المشرف على الحالة . . ، في عيني ابو الفضل دهشة وخجل وتعبيرات تنتمي الى الطفولة المنسية ، هم بالقيام ، وهل هذا معقول والجبس يوثقه ، وأشار الرفاعي باصبعه ملامسه فمه ، رفع علاء ابهامه مبتسما ، لم ينطق عصام وتوفيق ، بقي الصمت المعقم بدون خدش ، ثم مضوا الى عدة اماكن بالمستشفى ، الى مكتب الطبيب المشرف والى مكتب ضابط الأمن « والى مكتب الامانات ، والى المشرفة على التغذية ، وعندما وجه الرفاعي سؤاله عن امكانية احضار طعام من الخارج « قيل له ان هذا غير مسموح به تماما ، قال علاء للمشرفة على التمريض ان هذه الحالة تلقى اهتماما من أعلى المستويات ، ابتسمت المشرفة ، نظرت اليهم وقالت ان هذا واضح ، صباح اليوم التالى رن جرس التليفون رنة واحدة مختصرة . .

كان ابو الفضل يصغى الى ضجة السيارات الخافتة في الطريق لمحاذي
للنيل والقادمة عبر النافذة التي فتحت قليلا ، قالت الممرضة « العقيد
الرفاعى يسأل عنك » . . بعد ربع ساعة رن الجرس ، قالت الممرضة
« الجاويش مصطفى يسأل عنك » ، ثم ابلغته خلال الساعات التالية
باسماء من اتصلوا به « الرائد وسام ، المقدم توفيق الجرجاوى ، الرائد
عصام » المساعد ابو الحسن وفي مقر المجموعة قال الرفاعى انه سيضيف
ست ساعات الى تصريح اجازة اعتبارا من اليوم لزيارة ابو الفضل ، وقال
ان الذين يسافرون الى بلاد بعيدة يمكنهم ارسال خطابات الى ابو الفضل ،
وان عبد المؤمن سيقوم يوميا بتوصيل الخطابات المكتوبة من زملاء ابو
الفضل اليه . .

في ذلك اليوم ذهب مصطفى الى أمه ، سأله عن أحواله ، دعت له أن
ينجو من الأخطار وان لم تعرف ما يتعرض له من أخطار مضت إلى
الدولاب القديم ، أحضرت له ألبيجامة « عندما بدأ احتساء كوب الشاي
الدافئ » جلست فوق الارض ، سأله عن صحته ، ثم سأله عن
الرفاعى ، حدثها من قبل ان تراه في فرح فوزية شقيقة مصطفى ، قال لها
انه قلب الدنيا من أجل ابو الفضل بعد ان جرح « رفعت يديها ، دعت له
طويلا » استفسرت عن صحة أبو الفضل ، قامت في الفجر ، خبزت
فطيرا « مضت الى القرن القريب ، ثم إلى السوق ، اشترت جبنا وعلبة

عسل نحل . قال مصطفى ان الاطباء حددوا أنواع الاكل . ابدت غضبا ، قالت ان الانسان اذا سمع كل ما يقوله الاطباء لن ينجو ولن يتمتع بالصحة . قالت لمصطفى امض الى زميلك وقل له هذا من أمك بخيتة وليرمه في البحر بعد ذلك . في الاجازة التالية . اعطاها دفتر التوفير ، قال أنه لو حدث ما تسبب في غييبته ، فان الرفاعي سيساعدها على صرف هذا المبلغ ، اتسعت عينها . ما هذا ؟ ارتبك ، قالت احتفظ شيء لنفسك . هذا قال سيء . اذهب وانتبه لنفسك . سأزور الحسين وادعوك وللرفاعي وللكل ، خذ دفترك . بدت صارمة ، تذكر ملاحظتها التي اكتسبها بعد وفاة والده ، لم يستطع مجادلتها ، في نفس الليلة جلس فوق السرير بالعنبر ، كتب رسالة الى الرفاعي ، طلب منه ان يجنب امه المتاعب التي قد تترتب على سعيها لصرف معاشه ، قال انه يعرف تماما بأن الرفاعي لن يسمح باى تقصير لكنه يوصيه . وضع دفتر البريد وصورة له داخل مظروف أصغر ثم وضعه فوق الرف الثالث داخل الدولاب الصغير الخاص به بعد ان كتب عليه « الى قائدى وصديقى وأخى العميد أركان حرب ابراهيم الرفاعي قائد المجموعة ٣٩ قتال . . »

في يوم الخميس التالى عاد الرفاعي الى بيته مثقلا بالتعب . ثلاثة أيام لم ينم ، فوجئت نادية عندما خرج من الحمام ليرتدى حلتة الرمادية . قال ان النوم بالنسبة له مؤجل باستمرار ، انه ماض الى فرح أحد الرجال ،

خفض عبد المؤمن رأسه حتى يمكنه ان يرى ملامح الطريق في عزبة النخل ، البيت عند اطراف العزبة ، من التربة القريية علت أصوات الليل ، الوقت ربيعي والحياة رثة هائلة تتنفس بنشاط ، البيت مزدان بمصابيح كهربائية « عبر السور الخارجى ويجواره علاء وتوفيق وعصام وعبد المؤمن .. جاء سعيد ، بدا غير مصدق ، عائق الرفاعى ، وقف الرجال فى الحجرة الفسيحة التى أضيف إليها مقاعد عديدة ، خرج سعيد وعاد بصحبة الجرجاوى كان يرتدى حلة سوداء ، وقميصا متين الياقة ، تفوح منه رائحة عطر « صاح علاء ، .. « انت متكرر » قال الرفاعى « مبروك » « تعانقا .

فى تلك الأيام شعر الرفاعى بدبيب النمو فى عمر المجموعة « منذ فترة أصبحت تحمل اسما ، قال الضابط كبير الرتبة « حان الوقت لتحمل المجموعة اسما ، قال الرفاعى .. لقد قمنا حتى الآن بتسع وثلاثين عملية ضد العدو حتى الآن « اقترح ان نسميها المجموعة « ٣٩ » قال « كان يشعر انه يوزع نفسه على المجموعة ، فى كل موقع إليه بسيناء ترك قطعة من جسده « وفى قلب كل رجل صحبه أودع من عمره أياما ، أحزان المجموعة لا يعانى منها فرد ، تتوزع على الكل ،

بعد العودة من عملية الكارنتينة لم يفارق الرفاعى مكتبة ليلة بأكملها « ساد هدوء ثقيل ، بدا ضوء المصابيح المعلقة أكثر بعدا من ضوء

النجوم ، فى تلك الليلة تصدر علاء المائدة فى المطعم . ترك مكان الرفاعى فى الصدارة خاليا . على المنضدة صفت ادوات المائدة ، انقبض قلب عبد المؤمن . هذه اول مرة يخلو فيها مكان الرفاعى بعد اعتذاره عن الحضور . تم العشاء فى صمت ، لم يسمع الا احتكاك الملاعق بالاطباق . كما ان احدا لم يطلب طعاما اضافيا .

أما مكان الرائد عصام الدالى فلم يستطع احد ان ينظر اليه . ترد خاليا ، لم توضع مقاعد ، أو أدوات مائدة ، بدا شاغرا . موحشا

فى هذه الليلة اصغى الرفاعى الى وسام ، جلس بمسكا بقلم رصاص خطط به أشكالا مجوفة فوق ورقة بيضاء ، حشاها بظلال خفيفة . ثم مر عليها من جديد فازدادت قتامة ، ثم حفر خطوطاً غليظة تخللتها دوائر صغيرة ، استمر وسام يحكى بصوت هادىء ، قال الرفاعى يوما لوسام انه يخشى زمنا يحىء فيلهيه عن التفكير فى احد الذين صخبوه ثم رحلوا ، قال إن الناس يجدون فى الزمان عزاء ودواء لتخفيف الأحزان ، وهذا حقيقى فأقوى الأشياء لا يصمد للزمن ، لكنه حزين لان يوما سيحىء فتبتهت الذكرى .

قال وسام إنه بعد عودة الرفاعى الى رصيف الكارنتينة الذى سبق تلغيمه . بدأ العدو فى قصف القوارب واطلاق المشاعل المضئية بدون فواعل زمنية ، عندما تأكد عصام من عودة الرفاعى إلى القارب أشار

بالتحرك » ضرب وسام الماء بالمجداف ، فى مواجهته عصام ، بعد قليل سيتناول منه المجداف ، كان وجهه يبدو واضحاً كلما انفجرت قذيفة مضيئة فوق الكارنتينة التى بدأت تبتعد عنها » عندما برق الضوء الاصفر الفاقع الذى يصهر سواد الليل » اتسعت عينا وسام ، لم يكن الجسد قد مال عليه بعد » اليدان مائز الان ممسكتان بحافتي القارب ، القدمان فى وضعهما المثنى » ينتهى الجسد فجأة عند الرقبة ، الدوائر الحمراء » العروق المشطوفة » والدم المتدفق يصل إلى جيبي السترة ، على مهل مال الجسد حتى استقر فوق صدر وسام » تسربت الى جسده حرارة الدم الذى بدأ يتدفق مضحوباً بصوت ، شيئاً فشيئاً ، راح يغرق فى دماء صديقه » وكلمة برق ضوء المشاعل رأى الرقبة الفارغة ، الفارغة والدماء .

هل تعتقد ان المنطقة مليئة بالقرش ؟

أوماً وسام مجيباً ، بعد لحظة قال الرفاعى . .

أصبح بيننا وبين العدو دم غزير . لا اتصور ان الزمن سيمحوه . .

فى تلك الليلة لم ينم وسام » عندما بدأ يغفو استعاد الموقف منذ بدايته ، الدم الطرى الحار » ميل الجسد البطيء وثقله المضاعف عندما استقر فوق صدره ، فارق السرير ، شعر بخوف لم يفاجئه فى عرض البحر والوحدة والظلام » كيف اجتاز هذا ، قبل العملية قال علاء ان افضل طريق الى الموت رصاصات مباشرة فى المخ ، قال توفيق إن اقصر الطرق

موته المفترقات « ان تنفجر بين اليدين فجأة ، قال عصام ان قبلة مباشرة من زنه الألف رطل نعمة من عند الله » قال الرفاعي . يا جماعة اذا طخ الانسان بعيار أصبح فعلا ماضيا ، هل سيفكر في الطريقة التي مات بها ؟ الاعمار بيد الله ، تساءل توفيق بصوته الضخم « هل يتألم الانسان عند الموت ، قال وسام ، ألم تسمع المثل الشعبي « سارقاه السكينة » ؟ قال توفيق ، افضل الموت مستيقظا ، لم يتنبأ أحد بالطريقة التي رحل بها عصام ، قدر خفي ارشد الشظية الحادة المسنونة ، الساخنة الى موضع الرقبة ، لم يسمع وسام آهة ألم ، ولم ير الرأس لحظة اندفاعها الى البحر ، سلبهم العدو اتقى ما فيهم ، كان لا يتحدث الا مجييا على سؤال ، أو شارحا لفكرة ، يبدو دائما مطرقا ، وفي الاشتباك لا يطلق صرخة ، ولا يبدو عليه الانهاك حتى لو استمر الالتحام ساعات « تبدو رغبة في اقتداء كل من معه « يعرض نفسه لموقع الخطر ، لم ينافسه في ذلك الا الرفاعي نفسه ، استشهاد عصام مفاجيء ، اصغى الرفاعي الى الليل بعد انصراف وسام ، رأى اطراقة عصام الحُجُول ، واهتمامه الشديد باسداء خدمة الى الآخرين ، ثم حرارة حديثه المفاجئة وكأنه يود ان يودع أثرا منه لدى كل مستمع له ، استمر الليل ينزف سوادا مستمرا ، بدا الفجر بعيدا ، في الهدوء قرص الرفاعي شفّيته ، ستم عملية كبرى ، عملية عصام الدالي ، سيحدث لهم مذبحة ستروى في كتبهم . . في هذه اللحظة

حسم العقيد علاء تردده « خطأ تجاه مقر الرفاعي الذي لم ينطفئ ضوءه بعد ، طرق الباب ، عندما فتحه وقف متجمدا ، الرفاعي جالس إلى مكتبة مرتديا الاقنول « أصابعه متشابكة قلم رصاص بجوار ورقة بيضاء لم ير ما بها ، كان ملفوفا بالوحدة « غارقا في الغربة ، تلك الدموع ، هل كان يذرف دموع المقاتل النادرة على كل شهيد ، كم بذل من جهد حتى يسحبها على مهل بينه وبين نفسه ..

غير أن علاء لم يستطع ان يؤجل احزانه في ذلك اليوم الذي جاء بعد أكثر من ثلاث سنوات « بعد ان مضى ثلاثة عشر يوما على السادس من أكتوبر « بالضبط يوم الجمعة التاسع عشر من أكتوبر .. جاء إليهم الرفاعي بعد لقاء تم بينه وبين رئيس الأركان ، اخرج من جيب سترته ورقة كراسة ، الخطوط فيها رسمت بسرعة « ازير حاد شرخ السماء الزجاجية فوقهم ، في تلك اللحظة ايقن وسام ان شيئا غير عادي جرى ، لكنه لم يضع يده عليه ، قال إن المهمة تغيرت ، لن يتجهوا لنسف معبر العدو عند الدفرسوار انما سيتشرون جنوبي الاسماعيلية ، سيتصلون لدبابات العدو ، هبت رائحة خريفية « تختلط برائحة مطاط محروق ، وزيت مسكوب ، ورائحة لحم آدمي مشوى ، وفي السماء تائثرت كتل صغيرة من الدخان تحلفت عن انفجار قذائف المدفعية المضادة للطائرات ..

قال العقيد علاء لنفسه ..

كيف اقتنع الرفاعى بذلك ..

قال وسام لنفسه ..

ماذا جرى للرجل .. ماذا يقول لنا ؟

تساءل مصطفى « لماذا يبدو وكأنه يردد ما سمعه فقط ؟ تذكر اللحظات التى يشرح فيها خطته ، فتلين ملاحه حيناً ، وتشتد حيناً آخر .. إن الثقة به غير محدودة ، الثقة بالقائد لا تحتاج الا لتجربة واحدة ، ثم تتوطد وتعيش الى الابد ، ربما هذه الثقة هى ما جعلت كلا منهم يشعر ان الحال ليس هو الحال ، وان ثمة تغيراً اطرأ .

فى الثانية عشرة والرّبع جاء صوت مصطفى مستنجدا ..

« انا راجع ومعى رجلنا .. »

علاء يرد ، يسأل بغمض العينين عن رؤية هب مخيف سيخترق عينيه :

« راجع على قدمين »

انفجارات ، طائرات تروى الارض بالرصاص ، قذائف تزرع الهواء بالشطايا ، يتفجر قرص الشمس ، الهواء من هب « كل ما فى الكون يحارب ، الصحراء كفن أبدي لا يبلى ، صوت مصطفى متقطع كموجات اللاسلكى اللا مرئية ..

« لا .. راجع على ظهر .. »

نافورة صوت هائل متألم « موجع » يتفجر صدر توفيق « ناظرا الى
السماء في وضع عمودي » رافعا قبضته « لا .. لا .. صراخ مؤجل »
عمقه بالسنين ، تغوص قدماء في الرمال ، يضرب صدره . يقرض وسام
شفته ، لحظة أن رأى عصاها بلا رأس ، الكلاب يريدون أن ينهشوه راقدا
بعد أن عجزوا عن نهشه مقاتلا ،

يزعق علاء من فصر الخنجرة « يستنفر حياته كلها » كل منهم عليه ان
يقاتل ليسترد جزءا من عمره يوشك ان يسلب « وحيننا ، وأملا في
الاحسن .. »

« يا رجال .. تعالوا نرجع بالرفاعي . تعالوا نرجع بالرفاعي »

النشور

(١)

. . الاسكندرية مثنوى الذكريات وتابوت صان الايام الجميلة والآن
فيها منبع الدموع المؤجلة التي لا تتوقف ولا تكف وعندما وصلت اليه
وانتظرت عربة تاكسى امام تفتق جرح كاواهب دقات قلبها لن يظهر فجأة
ولن يقبض يدها عندما تفيض اشواقه فتدرك من صمته ما لم تدركه من
نطقه ولأن السند هوى وكل شىء ستقوم هى به ولان ظلها لن يختلط بظله
فوق الرصيف المحاذى للبحر ، ولأنه لن يشير الى الأفق الزجاجى ويقول
ضاحكا آه لو يمشى الانسان فوق الماء ولأنها لن تصغى الى امنياته ورغباته
الغامضة ، وعندما جاءت معه الى الاسكندرية اول مرة فى الزمن الأول

جاءت وجلة تحبه بعد ان نأت عن الأقارب الذين عارضوا ، والأشقاء
الذين رفضوا ، وفيما يلي ذلك من سنوات جاءت معه كثيرا الى الاسكندرية
المبتلة بقطرات ايامها الأولى والتي تستعيدنا الآن فتروها بدموع سخية
تسح ولا تشح ابد لأنها لن تراه ولن تسمع صوته فهو لم يعد يمشى فوق
الأرض ولأنها لن ترصد الارهاق الذى لا ييوج به ومن كلماته القليلة تجهد
نفسها لاقتفاء آثار المعانى ولأنه لم يكن يشأ أزعاج محبيه بآلامه ولأنه كان
يفيض بالفرح على من حوله ويضمن بالأوجاع والاحزان ، وعندما جاءها
الخبر يوم الجمعة حط على كتفها ثقل بغيض وتوقف الزمن فى صمت باتر
وادركت انها الخاسرة الأولى فى الدنيا ، وبدأ البيت عمرا كاملا وكل ما فيه
مضمخ بروائح فكل قطعة اختارها معها وهنا جلس وهنا ضحك وهنا
حمل ساعها فوق كتفه عندما بلغ من العمر سنة وأمام حجرتهما توقف
وسأل ، هل نام سامح ؟ هل نامت ليل ؟ فى الصلاة انتظرتة وخفق قلبها
عند سماعها لخطوطيه الأخيرتين قبل ولوج المفتاح فى الباب ، وعرفت انها
ستعيش انتظارا من نوع آخر لانه طويل المدى ومضن ومرهق للعمر ، وفى
كل مرة خرج فيها الى القتال كانت تثق من عودته وتجلس فى الشرفة مع
الليل وبعيدا عنها وفوق نقطة معينة من الارض التى يحتلها العدو يتحرك
ويضرب ، وكان يقول ان الذهاب الى العدو ومعاربته افضل من البقاء فى
انتظاره ، وقبل مجيء الفجر تصغى إلى الهليو كبر التى تتجه الى المطار

القريب وفي احدى الليالى قال انه يجب ان يراها بعد عودته ونفذت كلماته حتى اطرافها وعندما جلس مرتديا ثيابه المثقلة بآثار القتال ادركت من اطرافته ونطق كلماته مدى ما اصابه من نجاح ، ولم تكن تضيع ثانية ، انما تتحرك في هدوء لتعد قربة الماء الساخن وعشاء خفيفا « وكان يضيق اذا قالت له انها لم تتناول طعامها وتساعدته في خلع الافرول « وعندما بدأت الحرب يوم السبت السادس من اكتوبر ازدحمت السماء بالهليوكبترات ولم تدرك فى أى طائرة هو ؟ ولم تدر ميعاد عودته وبعد سماع الخبر لم تواجه سامح ولىلى انما دخلت الى عرفتهما وهوت فوق المقعد المجاور للسريـر ومن كل شىء نفذت اليها رائحته ورأت بيجامته الشتوية خاوية وزجاجة كولونيا مصرية الصنع لم تفرغ بعد وفوق المنضدة الصغيرة غطاء الرأس العسكرى الذى احتوى رائحة شعره وتحت كتاب باللغة الانجليزية ، وبين صفحاته تطل ورقة بيضاء مستطيلة اما مكانه فوقفوق السريـر فمستو وتذكرته عندما كانت تفتح عينيها فتجد جالسا ومستيقظا قبلها ، وفي تلك اللحظة استقر داخلها ثقل مرير وأدركت انها لن تجرؤ على أن تسند رأسها الى نفس الوسادة لأن الحجرة اصبحت كهفا من الوحدة وفي الليالى الاولى جاء كثيرون لكن فى لحظة معينة من الليل أغار عليها خواء ابدى وسقطت فى ثلاجة من الاحزان وعندما واجهت القادمين لم نحن رأسها وحدقت فى العيون بثبات ولم يفارقها يقين بأنه يراها ويطوف بالبيت ملتحفا بكل

الألوان التي لا ترى وتتبعث منه روائح لا يميزها انف وأيقنت انهن مبتل بالسكينة لانه يراها في النهاية كما عرفها في البداية ، ولانها استجابت له في غيابه فلم تبك كما طلبت منها ، وأدركت انه يطوف بالبيت ، ليطمئن على النيام وليستريح ، وطوال العمر القصير تحرك فيه هادئا بلا ضجيج ولم يتكلم كثيرا ، وكان ظله خفيفا ، ولم يعاند ، ولم يضرب سامح ولم ينهر ليلي ، ولم تكن له طلبات ، واذا سألتها عما يود ان يأكل يقول لها « ما ستأكلينه انت » واذا احتدم النقاش يقول لها « اخفضي صوتك سيسمعك الجيران » ، وعندما تفتح الباب لا تدل ملامحه على الجهة القادم منها ولا الى أى ناحية سيمضي ؟ وبعد رجوعه من ليلالى القتال يدخل حجرة ليلي وسامح على اطراف اصابعه ويتأملها ثم يميل ليقبلها ويأبى ازعاجهما وهو الآن يحوم حولهما ولا تراه ليلي ولا يراه سامح ، وتود ان يرضى عنها في غربته وسبل الاتصال بينها مقطوعة ، وفي اليوم الأول لم تبك انما قالت لنفسها ان زمان البكاء بدأ ، وان الأيام التي ستبكيه فيها بلا حد ، وفي كل عام « وفي يوم التاسع عشر من اكتوبر ستبدأ ذرف دموع تفيض على امتداد السنة كلها » وعندما ناءت بحمل الساعات والليالى والزمن الذي ولى جاءت الى الاسكتلندية كما جاءوا أول مرة ، وبعد زواجهما قالت امه « خلى بالك منها » وصحبهما اشقأؤها ، سمير وسامح وسامى حتى المحطة ، وفي الفناء الكبير اشار الى الديزل الذي بدأ

التحرك ، وقال انهم تأخروا نصف دقيقة ، وضحك « ورددت الطرف بينهم حائرة « أهي مسئلة عن التأخير ؟ وهل استغرقت وقتا أكثر من اللازم في اعداد حقائقها ؟ وضغط يدها « وخرجوا الى الميدان ، وعاد سامى ليقول انه عثر على تاكسى سيتحرك بعد قليل وعندما ادار السائق الموتور لوحوا بأيديهم وفيما بعد حكى لها عن اشقائه ، سمير وسامى والمرحوم سامح ، وحكى لها عن انتقال الاسرة من بلد الى آخر ، واستيقاظهم مبكرين ليلحقوا المدارس البعيدة ، ومشيهم فوق الطرق الزراعية « وحدثها عن الانتقال المفاجىء الى بلد آخر وعند وصولهم الى المدرسة الجديدة يجدون أنفسهم اما قد سبقوا المنهج او ان المنهج سبقهم كما ان الزملاء والاصدقاء يتغيرون « وفي طنطا توقف التاكسى ودخلا الى استراحة صغيرة وجلسا الى منضلة مستديرة وتعانقت نظراتهما ، ومنذ هذه اللحظات مشيت في وطنه وظللتها غماماته وصارت معه ، ولو عرفت أنها ستحاول بعد سبع عشرة سنة استقصاء الأثر لصانت كل ما مر بها ، ولاحتفظت بكل ورقة فوقها حرف ولتعلقت بخطوات الزمن حتى تثقله فلا يمضى ، وعندما مرت أمام الفندق الذى قضيا فيه باكورة العمر الجميل توقفت ولم تجرؤ على عبور الطريق اليه وحول البناء رأت الحديقة كالسلوى « والمصاييح الملونة معلقة إلى أعمدة خشبية ، وتذكرت جلوسها تحتها ، وابتسامها ، وهمسها ، وانحناء الجرسون لها ، وعناقهما لزرقه

البحر من الشرفة الخشبية الفسيحة ، واستشاقهما الهواء القادم من شطآن
غير مرئية ، وعندما حدثت طويلا في البحر قال مرحا « أقدم لك صديقي
البحر » وعلى الشاطئ قال لها إنه سيستعجل النجار بعد عودتها لينهى
الأثاث . وعند نهاية الرصيف المبلط بقطع صغيرة من الحجارة توقفا
وسألها ، إلى أين تودين الذهاب ؟ ، ولو حاولت احصاء المرات التي قطعنا
فيها هذا الطريق لكل ذهنها ، وفوقه مشيا عندما كانت ليلي جنينا تطرق
ابواب الدنيا من خلال احشائها وكان الحنو مغدقا منه . واللهفة لا تفارق
صوته ، ومنه تسرب اليها رضى احلى من الشعور بالأمن . وعندما جاء في
الاجازة انحنى فوق المهد ، ورفعها بين يديه ورأت وجهه تحت ظلال خجل
غريب مهموس ، والآن تواجهها المدينة بالصمت ، والبحر في حركته
الأبدية ، والناس يروحون ويحيثون ورجل يفتح باب سيارة لامرأة ، وامرأة
تتأبط رجلا . وتجمخ عليها وحلة بغيظة في قلب الزحام فتلوذ بأحد الايام
البعيدة ، وتذكر اندفاعاته المفاجئة وفي البيت يتأمل الاثاث حيث لكل
قطعة حكاية ، وكثيرا ما سألها « هل تذكرين متى اشترينا هذه الكنبه ؟ »
ويبدو مرحا ، وعندئذ ترصد ملامح طفل تحبها ، وفي بداية كل شهر يخرج
مظروفا أصفر اللون ويقول ضاحكة ، كم ستأخذ كمصروف ؟ فقال انه
لا يحتاج الى شيء وعندما سيحتاج سيقول لها . وعندما عاد يحمل بعض
الثياب قالت ، ألم تناقش البائع في الاسعار ، قال بدهشة ، لم أفكر ابدا في

مناقشته . . الاسعار مكتوبة في الفترينة ، ثم قال انه لم يعتد المناقشة ، وفي لحظات اخرى دخل المطبخ وفتح الدولاب وتأمل العلب والصناديق الصغيرة وسأل ، ما هذا ؟ عندئذ تقف ويديها معقودتين أمام صدرها وتحيب « صابون » ويسأل مشيرا الى بعض الاكياس « وهذا ؟ قالت « زبيب من بقايا رمضان » ، وتتقدم خطوة لتقول « أنا سأريحك . هذا سمن . . وهذا زيت » ضحك وقال « انا لا أطالب بالجرد » ، فقالت بدلال « اخرج اذن لو سمحت من المطبخ حتى اعد لك الغذاء » ، وهنا انصرف صامتا كأنه لم يدخل ، وكأنه لم يسأل ، وكان هذه الأيام لم تمر ، وكان سكينا هائلا بتر ففصل وابتعد ، وفي الزمن النائي تردد صوته في التليفون واضحا واثقا « زواجى منك معركة ولا يمكن ان اخسرها » قالت بصوت خافت محاذرة الا يسمعها احد « . . هل تعتبرنى عدوا ؟ » وعندما خرج يوم السبت السادس من اكتوبر كتب اليها رسالة موجزة « . . عندما يصلك خطايبى هذا اكون ماضيا لقتال العدو ، قولى لمن تلتقين به ان فى مصر رجالا قادرين على هزيمة العدو . . » وها هو كل شىء يفلت ويولى وعندما جاء معا الى هذا المطعم الذى لا تجرؤ على دخوله الآن كان المطر يهطل بغزارة وعبرا المسافة الفاصلة بين السيارة والباب قفزا ، وعندما دخلا نظرا الى المناضد الخالية ، وأويا الى منضدة مستديرة وجلسا وقال كل منهما انطباعه للآخر وكان يتدلى من السقف اوراق ملونة ومصاييح كثيرة وفي

الركن شجرة عيد الميلاد خضراء وقال لها ، كل سنة وانت طيبة » ولى ذلك العام » واعوام كثيرة يعده » وستجىء سنين اكثر بدونه ، وستخلو كل الايام من مشاريعهما معا » وخطاباته ومرات صمته التى اعتادتها ولن تعد له مفاجأة يوم عيد ميلاده ، احتفال بسيط فى بيتها لانه لم يعد هناك اعياد للميلاد ولا مكان للبهجة » انما ستحاصرها ايام البكاء الطويلة باحزان وآلام ووحدة ، هى الخاسرة الاولى ، وكثير ما يأخذها الفكر فلا تصدق انه لن يعود ، الم يواجه بلا حد ، وعاد سالما » وكثيرا ما هفا قبلها واستولت عليها حالة انتظار لسماع خطواته الاخيرة قبل التوقف امام البيت » وعندما فتحت عينها فى ذلك الصباح تقمصتها لحظات ولت ، عندما كانت تفتح عينها فتجده بجوارها ، وتذكر ان اليوم اجازة ، وانه سيقى معهم » وانه سيخرج بسامح ، وانه سيداعب ليلى ، عندئذ تغمرها راحة ، وتنظر الى وجهة الهادىء احلو الأمن التقاطيع والوديع الملامح ، وتنفسه البطىء فتقول بصوت خافت ، « يا حبيبى » غير ان لحظة الوعى ادركتها كأنقضاض صاعق ، فادركت انها وحيدة ، وانه لا يتمدد بجوارها ، وانه ليس فى البيت ، ولا فى مصر ، ولا فى العالم ، وان الحجرة غير حجرتها فمئذ ايام افسحت مكانا للكنبة فى غرفة الأولاد واصبح دخولها الى غرفتها صعبا ونبشا لشجون الايام الحلوة ، تنام مع ليلى وسامح » فى ذلك الصباح بكى وجرى الدمع سخيا وعندما خشيت

استيقاظ ليلي وسامح ورؤيتها هكذا خرجت على مهل الى الصالون وفيه استسلمت اسيرة للأحزان ونظرت الى صورته ، وهمست باعتذار لانها لم تستطع التصدى للبكاء ، لكنها لم تبك ولم تظهر ضعفا امام سامح ليلي ، وفي الاسكندرية طافت تحاول اقتفاء الاثر ، وكانت ملاحه في الطرقات ، وعند النواصي ، وفي المقاهي التي جلسوا اليها يوما ، وايقنت انه يرافقها ومن كل مكان يرمقها وفي الليل تتعلق بالسما وتلملم ملاحه من اعماق النجوم ، وعندما فتحت الباب رآته يمسك بيد ابو الفضل الذي بدا خجلا ، لكنه ابدى ترحيا به ، وقام وتناول طبق المكرونة الكبير وعندئذ وقف ابو الفضل فضحك طالبا منه الجلوس وقال له « انت ضيف » ثم ازاح الشوك والسكاكين جانبا ونظر اليها قائلا « نحن مقاتلان ونفضل البساطة » وفي رمضان كان يطلب منها ان تحجز نصيب ابو الفضل من الكنافة ، وفي العيد يعد له الكعك ، وكان يقول انه من الواجب ان نخفف الوحدة عن الانسان الذي ابتلى بالوحدة فلا ام ولا اب ولا اسرة له الا المجموعة وهما هي تمضي الآن وحيدة ولا يظللها بجناحيه ولا يخفف عنها همسة وتمر من بعيد بحديقة المنتزة ولا تعبر الباب ولا تتخطى السور وعندما جاء مصطفى قال بصوت باك ان الاكل الذي كانت تعد له بعد اصابته بالقرحة كان يفتسمه معه ، وفي كل صباح يجيء صوت مصطفى عبر التليفون متسائلا « الا تحتاجون الى شيء ؟ » وجاء عبد المؤمن يقود

السيارة الميكروباس البيضاء وامسك بيد سامح عند نزول السلم وفي الظهيرة عاد به وسأل ، الا تحتاجون الى شيء ؟ وجاء وسام وجاء علاء وجاء السرساوى يحمل صورة زيتية للحبيب الغالى « وضعتها بين صور عصام الدالى وعمر وسعيد وبقية شهداء المجموعة والذين علق صورهم بنفسه فى الصالون ، أما ابو الفضل فلم تره « وقالوا لها ان خدمته انتهت « وانه لم يتصل باحد منهم « ولم يره أحد ، وانه رحل الى اماكن لا يعرفها احد ، والتحق كل فرد من المجموعة بوحدة « وفي حديث لمصطفى قال ان الكثيرين جاءوا الى مقر الحبيب ليروا اين عاش ؟ واين فكر ؟ واين وضع خطط الهجوم ؟ وقال مصطفى انهم ضباط وجنود لم يرههم ابد ولم يسمع عنهم وبعضهم لم ير الرفاعى ولم يلتق به ، وجاءت أم مصطفى وقالت انها لم تره الا ليلة فرح ابنتها ، لكنها احبته كمصطفى ، وتساءلت . . الا تحتاجين الى شيء ؟ قولى ولا تخجلى ومع مضى الايام تتباعد المسافات « وتصبح الوحدة عمرا وتطول لحظات اصمت ، وفي الليل تتأكد من اغلاق النوافذ « والترباس النحاسى المتين الذى اضافته الى الباب وعندما يدق الجرس تنظر من العين السحرية ولا تفتح الا اذا استوثقت من القادم ؟ وفي جوف الليل تصغى الى برودة البيت ، وترحل عبر سنوات العمر ، تلملم الذكرى من كل عام ، وتلجأ الى الدفء فى الاحاديث التى لم يدهمها النسيان ، وتصغى الى خطوات العائدين بعد منتصف الليل ، والى شظايا

ضحكات بعيدة مجهولة المصدر ، وإلى عبور عجالات المترو لفواصل ما بين
القضبان ، وإذا عجزت عن استعادة ملمح أو عبارة قلت يوما ،
تبكى ...

« .. ما بين اليقظة والنوم تنهوى الموجودات » تلين اليوابس
وتتدافع سيارات في صخب غير محسوس ، ويتعلق جندي بعربة نقل ،
وترتفع معاول « وتلمع الشمس فوق حديد ملقى في العراء » ويبدو
الرفاعى ماشيا « ويبدو مبتسما ، ثم يرى واقفا ، وجالسا داخل هيلو
كبتر « وتطير شظية في حجم صومعة قمح ، ويظهر جنود من تحت الأرض
يمد كل منهم يده حاملا رسالة ، والرفاعى يجمع الرسائل وفي المقريلصق
الطوايع ويقف جندي أمام الميكروفون يتلو شعرا ، وتعبث الرياح في
شوارع خالية ، اين الرفاعى ؟

يهوى ثقل داخل الصدر ، تتعثر دقات القلب ، بدايات غثيان «
لحظات ما قبل القىء » الجسم يفرغ من الروح ، يقوم متسارع
الأنفاس ، والوخز يفرش صدره ، يجلس في الفراش ، الآن ، في هذه
اللحظة ، التالية ، لن تمضى لحظات الا وسيقع ما واجهه طويلا ، ما نجا
منه « ما أفلت منه » الدوار خفيف هازىء يقف في وسط الغرفة ، أى
مواجهة هذه ؟ أى خلل طرأ على القلب ؟ أى قوة تباغته ؟ العالم كله
سيولى ، سيموت . الآن ، الآن ، الآن ، الدقيقة التالية ، الخمس دقائق

التالية الدقائق الثلاث التى انقضت فعلا ، يفرد به فى مكان مغلق ، يدفع
مصراعى الشرفة « المدينة هاجعة والشوارع خالية تفسح الطريق امام
الموت القادم « سألت زوجته بخوف .

مالك . . مالك يا علاء ؟

سيودع هذا كله « سيفادر البيت ، والطرق ، والعالم ، يشحب «
يجف لعبه ، تتسارع دقات قلبه ، يود الافلات من اسار الجسد « من
تصور ان الموت سينصب له هذا الكمين ؟ هذا الوخز البطيء الذى تحدثه
ايد خفية غير منظورة ، الوخز الذى يسبق التوقف النهائى ، الوخز الذى
يصحب تباطؤ الدقات ، القلب ضنين بما يدفعه من دماء الى سائر أنحاء
الجسم ، تضيق به الشرفة « يستند الى المصراع الخشبي ، يدخل ، الفزع
يكسو وجه امرأته ، اختصر الرفاعى وعصام وعمر وعبد الكريم الطريق ،
تعود بكوب ماء « يرفعه الى شفتيه ، اشهد أن لا إله الا الله ، تصرخ
زوجته « علاء ، للهاء مذاق غامض ، اهكذا ، لم يبد له الموت اثناء القتال
والدوريات وعبور الالغام والتزول الى قلب المواقع المعادية « ثم يجيئه فجأة
بين جدران مشيدة ، جاء سالكا ممرات وعرة الى روحه ، يبدأ هذا الانهيار
البطيء الذى لا صوت له « تتساءل بفزع . . . ماذا أفعل ؟ تمسك كوب
الماء الفارغ ، لن يوقف احد هذا الزحف البطيء الذى اصبح الآن
مصحوبا بهدير خافت وحلقات غير مرئية تدور داخل الرأس « يحكم

الحصار حول روحه ولا يجهز عليه في ضربة مختصرة واحدة ، والليل
يثقل « والنهار قد يحىء ، ولا يحىء ، ولن يذهب الى السرير » لو أغمض
عينيه فلن يفتحها قط « وفي السويس قال جندي « طاقء يقف بجوار نجبا
المحافظة ، « جاءت الشظية في حجم رأس الدبوس ، آه يا كبلى » لم يحط
منطق « وفي طريق المعادى قال لنفسه « لو جرحت ، سأرقد في هذه
المستشفى ، أو أحد المستشفيات العسكرية » ، في حديقة المستشفى رأى
مصابيا يرقد فوق سرير متحرك « يتدلى من تحت الغطاء خرطوم نحيل من
البلاستيك يصب في زجاجة مستديرة امتلا نصفها بالبول ، قال لنفسه
« اكره ان تعذبني يارب » .

تقول امرأة ..

يجب أن نستدعى طيبا ..

ينظر إليها صامتا ، موجوعا ، محاصرا ، ماذا يشكو ؟ هل استقرت
شظية في جسده ؟ هل يتزف دما ؟ هل غارت في عروقه رصاصه ؟ نزيفه
الحالى لا تراه عيون ، ولا ترصده أجهزة ، نزيف الحزن مستمر « داخل ،
لا يبين ، إنه الآن في هدنة مؤقتة مع هجوم الموت المباغت الذى لم يجهز
عليه ، في صغره ، قال والده ان ملاك الموت كان يحىء الى أمة محمد قبل
ارساله إليها مجسدا « وعندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام رجا الله
ان يرحم امته من هذا الهول ، فبدأ عزرائيل يحىء متخفيا لا يظهر الا لمن

سيقبض روحه ، إنه لم يظهر له حتى الآن ، لكنه يحوم ، ماذا سيقول للطبيب وهو الطبيب السابق ، لو يطلع النهار ، لو يرى الحركة ، ويستشوق الروائح ، يدرك ان حياته انقسمت منذ الليلة الى قسمين ، الاول عاشه وولى ، كان مفعما بالحركة والقتال والرفاعى والزلاء الذين مضى كل منهم الآن الى مكان غير المكان ، والثانى بدأ ، المجهول ، انه يمسك بلحظة تولد فيها التجميدة وتبقى لا تفارق الوجه ، عندما اتصل به احد الصحفيين فى الظهيرة وطلب منه ان يقابله ليحدثه عن الرفاعى اعتذر ، قال الصحفى انه سيعيد سبع حلقات اذاعية عن الرفاعى ، لم يسمح باطلة عمر الحديث ، انما انهاء فى جفاء ، ماذا يريدون ان يفعلوا بالرفاعى ؟ حلقات اذاعية ؟ رواية ؟ قصة ؟ فيلم سينمائى ؟ هل يتسع احد هذه الأشياء للرفاعى ؟ لهذا العمر كله ، لو اتصل به احدهم مرة أخرى سيصبح فيه . يا لصوص كنوز المقابر . . اتركوا واركوا الرفاعى فى حاله . ، لا يود رؤية نابشى السيرة الفضوليون ، المتطفلون ، كأنهم يتحلقون به فى هذا الليل ، يخشى الليل الآن ، انه يلتمس الماعدة من الرفاعى ، لم يخلق من لا يخاف ، إنه لا يخشى عدوا معروفا ، إن مهاجمه لا يرصد ، لا تخترقه الرصاصات ، ولا يناله سن الخنجر ، فى قلب الانفجارات واللهب ظهر الجمعة التاسع عشر من اكتوبر انحنى بأذنه فوق الصدر العريض الذى احتوى البلد ومن فيها سنين طويلة ثم سكنت من

أجلها بعد ان خفق وخفق لها . عبثا حاول التقاط أى إشارة مرسلة من القلب ، الجسد سليم ، اليدان تلامسان الخصر ، كأنه سيقف بعد اغماضه عين ليرصد . ويرقب ، ثم يعطى إشارة الهجوم ، غير أن الظهر احتوى الهلاك النحيل ، فى مستشفى النحاسين قال الاطباء ان الشظية نفذت الى القلب تماما . سلكت طريقا ادق من مشرط الطبيب لو سدد الى مركز القلب ، قالوا انه لم يتالم . فتساءل ، لكنه لماذا يضغط شفته بأسنانه ؟ اثناء عودته بالجثمان لم يك . عندما ظهر الطيران مدده ورقد فوقه . يجمى الجثمان من خطر آخر محموم او شظية غسومة ، لاس وجهه جبهة الرفاعى وعينييه وذقنه الحليقة ، من ملاحه كانت تولد ابتسامة من قلب الموت كما تنمو الزهور فوق المقابر ، وعندما رآه عبد المؤمن بكاه صارخا .

« كالقمر » وعندما عاد يحمله لم يدر ، هل يغلق عينييه ، ام ينزكها على حالهما ؟ لم يدر إلا شيئا واحدا ، أن يعود بالرفاعى ، لو ان الرفاعى سمح له بالتقدم بدلا منه لكان مستريحا الآن ، انه حزين من أجل نفسه ، الا يختار الموت الا هذه الطريقة الغامضة فى الهجوم عليه ؟ يكاد يدمع حزنا على ذاته المحاصرة ، على الفراق الطويل البطيء ، لا يرغب فى البقاء بالبيت ، لا يرغب فى النزول الى الشارع ، لا يود محادثة أحد ، إلى من يتكلم ؟ تنقطع الخيوط واحدة اثر اخرى قتعبت الامواج بالعمر ، لماذا لم تباغته النهاية فى لسان التمساح ، فى بلاعيم ، فى الطور ، فى جبل مريم .

في شلاطيم لو حدث لوجد من يرثيه ، ويحزن من أجله ، ويذكره ، ويعلق صورته في بيته ، ويطلق اسمه على إحدى العمليات « لكن ها هو الفناء يراوغه » يهدمته في كل لحظة جزءا حتى يجهز عليه في ضربة مباغته ، بأى مكان يتحصن ، وإلى أى موقع يلجأ ؟ انه يمسخ دماغا جرى ، أين الرفاعي ليشكو له ما جرى ، ليحدثه عن هذا الاحتضار الطويل الذى بدأ « قد يستغرق ثوان » وقد يطول إلى سنوات ، أين هو أين ؟

« . . . إلى الصعيد وإلى الوجه البحرى وإلى المدن المحاذية للبحرين الأبيض والأحمر وإلى القرى المطلة على رمال الصحراء رحل أبو الفضل » لم يستقر فى مكان ، ولم يأو إلى بيوت ، ولم يهجع إلى انسان . فوق الطرق الزراعية المرصوفة والترتبة نزل الليل عليه « وقرب سمالوط هاش بعصا من جريد النخل على الكلاب عندما حاولت النيل منه ، ورأى أضواء مدينة ادفو والليل مقترب ، ومن الحقول شاهد مباني الاسكندرية مضمة بالمغيب والسحب ، تعلق بالقطارات الراحلة بين المدن والقرى » وعبر النيل فى القوارب الصغيرة والمراكب الكبيرة ، وعمل حمالا مع جماعة ينقلون الأحمال ، وعاملا فى رصف الطرق « ويوبا لوابور طحين ومعبأ لأكياس البصل ، دخل بعض القرى والمدن مع بدايات النهار » وأوى إلى المساجد المفتوح فى قلب الليل ، ونزل ضيفا على كثيرين لازالوا يقدمون العون إلى الغريب فى ذلك الزمان ، فى قرية دراو بالقرب من اسوان سأله الفلاحون فى السوق بعد أن بدأ كلامه ، من هو الرفاعى ؟ فقال إنه من الناس الذين لا يجيئون مرتين فى الزمن الواحد ، جاء إلى الدنيا وقضى عددا من السنين محدودا « وحمل البلد وهمومها فوق رأسه ، وحارب من أجل الناس ، الناس الذين يعرقهم ، والناس الذين لم يرههم » والذين

مضوا ، والذين بقوا ، والذين لم يأتوا ، قال إنه الآن طائر من بين الناس ،
وانه علا كما لصقر ولم يعد فوق الأرض إلى حين .

وفي الزقازيق حدث الناس في مقهى كبير عن جلوس الرفاعي إلى
الجنود وحديثه إليهم ، وحديثهم إليه ، وطلبه منهم ان يتحدثوا عن
بلادهم وعن قراهم ، وعن الوان الزرع على مدار السنة ، وكيفية محاربة
الآفات ، وزمن نضج المحصول ، وكل ما صار وما سيصير ، وفي كفر
صقر قال لعمال محلي القطن إن الرفاعي لم يكف عن توجيه الاسئلة إلى
الجنود ومنهم استوحى الخطط ، وأنه كان هادئ البال ، طويل النفس في
محاورة الصغير والكبير ، وحكى لهم ما جرى بالقرب من القناة يوما .
عندما قال ضابط احتياط من حملة المؤهلات أن مستقبله ضاع بسبب
الجيش وأنه كان مرشحا لبعثة إلى اورويا ، فإشار الرفاعي إلى الشرق
وسأله ، من يطرد هؤلاء ؟ ثم قال ، هل نستورد رجالا ليحاربوا لنا ؟ ثم
قال ، لو تركنا العدو فلن يظل مكانه ، انما سيجىء لانه يطمع في هذا
الفول الأخضر ، ومد يده واقتلع عودا من النبات الأخضر ، سأله
الرفاعي ، هل تشى كلنا ونتركه يمضى إلى بيتك وبيتي واختك واختي ،
قال الشاب ، لا . . قال الرفاعي ، انت قلتها لنفسك .

ومضى ابو الفضل إلى كفر صقر وإلى السنبلوين ، وقال للفلاحين في
حقول الأرز المغمورة بالمياه أن الرفاعي كان هادئا وبسيطا ونفسه حلوة ولم

يتعال على مخلوق ولم يخرج انسانا يلفظ ولم يحدش اذا بكلمة ، وقال إنه كان قاسيا فيما يتعلق بالقتال ، يوقع الجزاء على الجندي ويضعه في السجن ثم يستقصي أحواله من بعيد ليعرف اذا ما كان حبسه سيؤثر على نفسيته عند الخروج للملافة العدو ؟ ، وفي أحد الأيام زعق لاحدهم لأن زرار قميصه مقطوع ، قال ان من ينسى زرار القميص فإنه ينسى تركيب كبسولة التفجير ، هكذا يروح الجهد ويضيع .

في قرية الغنايم قبل لف ابو الفضل ، وفي البدارى تحدث الى الناس تحت سقف الليل ، وفي الحواتكة جلس على محطة السكك الحديدية ، وفي القطار طاف بركاب الدرجة الثالثة ، وفي جهينة قضى يوما بسوق الاثنين ، وفي مغاغة قضى يوما آخر بسوق الأربعاء ، حدث الخلق عن الخروج مع الرفاعي ، واحساسه الخفى بقرب ظهور العدو وامره بالتوقف عندئذ ، حدثهم عن انواع الضوء ، الأضواء الغامضة في عمق الصحراء ، وكشافات الطائرات المقترية من ممرات الهبوط ، وتلاقيها مع اصداء الاضواء الخافتة الصادرة من النجوم البعيدة ، ومشاعل العدو التي تصهر الليل ، الطلقات الكاشفة لدفعية الهاون وارتفاعها المتمهل البطيء ، واللهب المنبعث من فوهة مدفع ميدان ومشاعل الطائرات التي تعرى المدن والمواقع ، حدثهم عن انفجار القذائف ، عن نفاذ الرفاعي بين الشظية والشظية ، عن حضه لهم على مواجهة الموت وعدم الخوف منه

والسعى اليه لأنه ينال من يخاف ويباغت من يخشى « حدثهم عن تقدم
الرفاعي بطوله وعدم انحناؤه لحظات الهجوم وعنف قبضته عند الالتحام »
وحدثهم عن لحظات المرح في قلب مواقع العدو « عندما اصبروا على التقاط
صورة في عتمة الليل ، واصطفوا حول الرفاعي ، وبريق ضوء آلة
التصوير ، قال علاء ان العدو سيرصد هذا الضوء ويحار في تفسيره » ربما
ظنه سلاحا جديدا « حدثهم عن مواجهة الليل مع الرفاعي « والصمت
حولهم لحظات الخطو الحذر الى العدو « والغموض « ومعركة الرفاعي
باوضاع الهجوم وقوله ان ما بيننا وبين العدو دماء كثيرة وان نصف جيشه
لا يكفي للثأر لاحد رجالى « وقوله انهم يجب ان يأخذوا من العدو احسن
ما عنده « لكن لا يعاملونه بنفس اسلوبه القدر ، فلا يبينون اسيرا حيا ،
ولا يلغمون جثة ميت ، ولا يمثلون بجثة ، وعن قوله انه يجب تعدد الطرق
التي يسلكونها الى العدو « وان الطريق الذى يعبرون من خلاله لا يستخدم
الا مرة »

في قنا أقام أبو الفضل ضريحا من الكلمات ومزارا لا يزار ، قال لمن
قابلوه انه لا ينبغي مكانا للمبيت فالمجموعة كانت بيته ، وآخر البيوت ،
وانه لا يريد شيئا لانه نذر أيامه ليطرح في كل بلد غرسا ، وليضع في كل
قلب مقدارا ، حدث الناس عن اقتفاء الرفاعي للأثر ، قال ان من علمه
اقتفاء الأثر رجل عجوز من بدو سيوة تجاوز المائة ، كان يخلو الى الرفاعي

فقط ، ثم يأوى الى ركن ناء قريب من مكان نومه ، يضغط عمامته فوق رأسه ، يدخل يديه فى اكمام جلبابه الواسع ، ثم يطرق محمقا الى الأرض بثبات عجيب ، يبدو كأنه قادم من أيام منسية ، قيل انه علم الرفاعى كيف يقرأ الرمال ، وان يطلع على مكنون الصخر ، وان يعرف الزمن الذى انقضى على مرور الانسان ، وماذا يحمل ؟ ومقدار ثقله ، علمه ان يعرف جنس الثعبان من شكل الخطوط ، وأين يختفى ثعبان الطريشة ، والى اين يتجه العقرب ؟

قال ابو الفضل انه فى يوم من أيام هذه الدنيا سيجىء من يمشى على قدميه من جديد فيقطع المسافة من المنبع الى المصب ، فيلملم ويجمع ، سينظر الرفاعى الى أضرحة أبو الفضل وشواهد التى أقامها فى كل البلاد ، فيذكره عندئذ بالخير ، وسيقول لنفسه ، شاء أحد رجالى الا يضيع دمنا هدرا ..

سيمشى الرفاعى فاردا طوله ومتطلعا الى الأمام ، واضعا نفسه فى أكثر الاماكن تعرضا للخطر عندما يجىء الخطر ، سيمشى ليجادل هذا ويكاحر مع ذاك ليعود بحق ولو ضئيل لاحد الرجال ، وليمضى الى الشكالى ، يخفف عنهم البلايا ، ويقضى الحوائج المنسية ، ويؤكد وعوده بالثأر للقلوب المجروحة بسبب رحيل الأحباب ، وليعلم الناس لغة العدو فيأمنون الخطر المباغت ، وليعرفوا ما سيفعل ، وما سياتى به الى الغد ،

ومن قبل ذلك يعلمهم لغتهم فيمحو أمية كل من خاصمه الزمن ،
سيحمل البلد فوق رأسه ، سيقطف آثار من ضلوا ليعود بهم ، سيسعى
خلف كل من يهدده الفناء في الصحراء ..

بالقرب من كفر الزيات قضى ليلته في الحقول ، أصغى الى النباح
والصرير وهمس النجوم ، مع بداية النهار حام حول مرسى المراكب
النيلية ، حسم تردده ، تقدم من المعلم الذى يرتدى جلبابا بلديا واسع
الأكمام ..

أحمل معكم الطوب ..

قال المعلم ..

العمل شاق

أوما أبو الفضل ، قال المعلم :

كل مائة حجر بقرش ..

خلع جلبابه ، بعد لحظات بدأ يقطع المسافة الفاصلة بين الشاطئ
والمركب الكبيرة فوق سقالة الخشب النحيلة ، فى الليل قال للمراكبية ..

أقضى الليل معكم ..

مد يديه ليتدفأ بالنار ، شم رائحة الحطب ، وتذكر المائدة التى جمعتهم
يوما فى قلب ميدان الحسين والافطار الرمضانى عادة كل سنة ، وتذكر

ضحكات الود وحرارة الأيام ورفقة القتال ولحظة تواجده بعنبر النوم ثم مرور الرفاعى وطرقه باب العنبر قبل دخوله على الجنود ، وقوفه بينهم قبل التحرك الى الجبهة ، والتماس الراحة بعد العودة .

فى الصباح قال المراكبية لأبو الفضل . .

ابق معنا . . لا تفارقنا . .

قال انه سيجر معهم المركب فى المياه الشحيحة ، وسيرفع القلوع عند جفاف الرياح ، وسينشرها ويتعلق بها عند سخائها ، بعد الابحار ربط الجبل فى وسطه ومشى فوق الشاطئ المترب ، يصارع ثقل المركب ، يثبت قدميه فى الأرض ثم ينقلها ، وعلى الجانبين تمتد خضرة ، وتهتز فروع نبات ، وتترقرق أمواج .

زعق مصارعا الأرض والأمواج التى تحاول ان توثق حركة المركب ، ليصغى اليه الناس ، ولتسمعه الموجودات ، وليحدث أثارا لا تغنى فى اللون الأخضر ، ما بين الظل والشمس ، وفى الموضع الذى تشق فيه مقدمة القوارب النهر والبحر ، لكم قال الخبراء وعلماء البحر إن الرياح عتية والابحار مستحيل ، ولم يثن هذا الرفاعى ، من كل لحظة فى عمر هذه الدنيا سيجىء ، سيدلو للكل ، من رآهم ، ومن سيعمل معهم ، ومن سيلتقى بهم على غير اتفاق ، سيظهر فى الجهات الأربع الأصلية ، ويسرى

الى الكل ، عندئذ سيمضون اليه ، فواحد يحنو عليه ، يضمه ، وآخر
برداء الحرب يظلمه ، وآخر بالصمت ينظر الى وجهه ، وآخر في الهجوم
يفديه ، وآخر قبل الاقتحام يستأذنه ، وآخر بعد الجرح يلوذ بجانبه ، وآخر
يقول نأيت عنا زمنا طويلا ولم نعتد منك البعد ، فيقول أبو الفضل عندئذ ،
كان سكنه في العمر ، وضريحه في قلبي ..